ماهر شرف الدين

لحظة وفاة الدكتاتور



سرد

لحظة وفاة الدِّكتاتور

٢

تاريخ الطبعات:

الطبعة الأولى: 2011

الطبعة الثانية: 2018

الطبعة الثالثة: 2021

ماهر شرف الدين

لحظة وفاة الدِّكتاتور

سرد

الطبعة الثالثة، 2021

منشورات ماهر شرف الدين

ISBN: 978-0-9985392-8-7

إلى أُمِّي
التي لم تكن تجرؤ
على مسح زجاج الفاترينة
بالصفحة الأولى من أيِّ
جريدة رسميَّة لأنَّ عليها
صورة حافظ الأسد.

10 حزيران 2000

- عرفتوا شو صار؟ عرفتوا شو صار؟
- شو؟
- مات حافظ الأسد!

كنّا ممدَّدين في الكوردور الضيِّق الذي نُسمِّيه، خطأً وعن قصدٍ، صالوناً، عندما دخل أخي الصغير يحمل على وجهه تعابيرَ دهشةٍ أكبر من عمره، قائلاً بشكل متواتر: «عرفتوا شو صار؟ عرفتوا شو صار؟»... ولم يخبرنا ما الخطب حتى بادره أحدُنا بالسؤال المطلوب: «شو؟». عندها قال بصوتٍ هامسٍ ومخطوفٍ: «مات حافظ الأسد»!

خفتُ أن أنتشيَ، أن أفقد تلك اللحظة، أن أُفلتها من يدي. كنت أريد القبض عليها ووضعها في قفصٍ والتملِّي فيها كأنَّها صيد. كنتُ أريد امتصاص رحيقها ووضع الكلابشات في معصمَيْها واحتجازها. كنتُ أريد التخبيط على صدرها وتقبيل قدمَيها، تحنيطها، بطحها على الأرض، واغتصابها. كنت أريد لها

أن تكون لحظةً جنسيةً تطول وتطول وتطول... حتى تسرق شعار بطلها: «إلى الأبد».

لقد مات صاحب الصورة على غلاف الدفتر المدرسيِّ. مات «الأب القائد». مات «الرفيق المناضل». مات العربي الأوَّل، والمؤمن الأوَّل، والجغرافي الأوَّل، والرياضي الأوَّل، والمعلِّم والقدوة والـمَثَل والرمز... مات حافظ الأسد.

كان وجهُ أخي وهو ينطق الخبرَ غائباً تماماً. كأنه فجوةٌ في الهواء عبرتْ منها هذه العاصفة.

نهض أبي من مكانه، ركضتْ أختي وأقفلتْ بوَّابة الدار، وفور دخولها أقفلت أُمِّي الباب وراءها.

صمتٌ تامٌّ في الحيِّ الذي نعيش فيه بمدينة الشدَّادي شماليّ سوريا. لا أحد في الطرقات. الجميع خائف وكأنهم هم الذين قتلوا الدِّكتاتور.

وعلى العكس مما خطَّطتُ له لهذه اللحظة، سرعان ما أُصبتُ بعجزٍ تامّ عن الشماتة أو الفرح، وكأنما دخلتُ في لحظة تأمُّل شخصية. والأسوأ أنه أصابني ما يُشبه الشعور بالذنب!

دخلتُ الحمَّام -لا أعرف سبب غرابة تصرُّفاتنا في لحظات كهذه- تنفَّستُ بعمقٍ وبكيتُ... حمَّام صغير بحجم الغرفة التي

أجلس فيها الآن (العام 2007) في «المفوَّضية السامية لشؤون اللاجئين» التابعة لهيئة الأمم المتحدة في شارع فردان ببيروت طالباً اللجوء.

لحظة وفاة الدكتاتور تراودني الآن كي أحكيها للموظَّفة التي بدأت باستجوابي طالبةً مني أن أحكيَ قصَّتي. هل أحكي لها هذه القصَّة، وأضرب بيدي على الطاولة وأقول: «هذه قصَّتي»؟

«المفوَّضية السامية لشؤون اللاجئين»

هي ذي الجلسة الثانية، بعد تقديمي طلب لجوء هرباً من حملة الاغتيالات في لبنان التي تمدَّدت إلى اغتيال صحافيين أصدقاء، بينهم صديقي الصحافي سمير قصير، وأنا للتوِّ انتبهتُ إلى أن الموظَّفة تسألني الأسئلة ذاتها التي سألوني إيَّاها في الجلسة الأولى، مع بعض التغيير. إنها تريد اختبار صدقي.

شعرتُ بالارتباك في تلك اللحظة. شعرتُ بأنني في تحقيق. إنهم يحقِّقون في ألمي. يحقِّقون في «صحَّة» هذا الألم! شعرتُ بألمي عارياً أمامهم كامرأةٍ مغتصَبة ومرميَّة على قارعة الطريق. للتوِّ انتبهتُ إلى أنهم يمتحنونني. للتوِّ انتبهتُ إلى أني أُسمِّع حياتي كما يُسمِّع تلميذٌ دروسَه.

- ما اسمك؟
- ماهر جهاد شرف الدين.
- تاريخ ميلادك؟

- 1977.
- ما اسم والدتك؟
- حياة أبو فخر.
- ما هي مهنتك؟
- صحافي.
- متى غادرتَ سوريا لآخر مرَّة؟
- سنة 2002.

أذكرُ هذا التاريخ جيِّداً لأنه مرتبط بقرار نشري أوَّل مقال ينتقد النظام السوري.

***

كنت ما أزال أعيش مُشرَّداً أُوزِّع نومي بين ورش البناء في عاليهْ وخَلْدة. وأحياناً إذا ما وُفِّقتُ بعملٍ لعشرة أيام متواصلة أستأجر سريراً في شقَّة طلَّاب.

كان موسم شحٍّ في العمل، وكلَّما دخلتُ ورشةً للسؤال عن عملٍ أتذكَّر تلك اللقطة البريئة في حياتي، عندما حملتُ أول كيس إسمنت ورميته بلا حَيْل. نظر إليَّ معلّم البلاط وقال مستغرباً ساخراً: «بشرفك، مَن حملَ الآخر: أنتَ أم الكيس؟».

أنا أم الكيس؟ لا أعرف. فقد كنت مرهقاً من الجوع لثلاثة

أيام متواصلة، حتى تحوَّل ذلك الجوع إلى ما يشبه الخَدَر في كلِّ أنحاء جسمي. ثلاثة أيام عشتُها على الماء والسكَّر. وحين وافق المعلِّم نبيل على تشغيلي معه في تبليط الطابق الأول في البناية التي أُقيم فيها ناطوراً مجانياً، بدلاً من زوج خالتي الذي ذهب في إجازة، فكَّرتُ بأن أطلب منه رغيف خبز أو أيَّ شيء للأكل، لكني خجلتُ من ذلك، وحملتُ الكيس.

كان المعلِّم نبيل مزوحاً دائمَ الضحك، لكن تصرُّفاته تبعث على الريبة. وفي ما بعد فهمتُ بأنه سكت عن أدائي السيء في العمل، فقط كي يسحب منِّي بعض المعلومات عن المباني المجاورة حيث كنت أقيم هناك. سألني أسئلة غريبة، ثمَّ أقنعني بأنه يريد مشاهدة التلفزيون، وأنا على الرغم من حذاقتي صدَّقتُ ذلك ونزلتُ معه إلى الشقَّة الأرضية في البناية المجاورة التي يتركها أهلها شتاءً. وفتحَ نبيل كلَّ شيء إلا التلفزيون! فتحَ الأدراج والخزائن والأبواب... وكنت أفتح معه وأُفتِّش لا على التعيين، لكن حركاته السينمائية وتلفُّتاته اللصوصية نبَّهتني إلى هُويَّته كلصٍّ، فطلبتُ منه الخروج حالاً.

في ما بعد سيتبيَّن لي الآتي: المعلِّم نبيل سجين سابق لمدَّة خمسة عشر عاماً، بينها خمس سنوات في سجن تدمر بسوريا (وهذا

هو الشيء الوحيد الذي كان قد أخبرني به زاعماً أن السبب هو مشاركته في الحرب الأهلية اللبنانية)، يعاني من مرض فصام الشخصية، مدمن مخدِّرات، ومثليّ الجنس. هذا ما ذكره تقرير «دار الصليب» للأمراض العقلية التي دخلها بعد أشهر، حيث أطلق الرصاص على أخيه وأصابه بشللٍ نصفيٍّ.

عندما عرفتُ ذلك من المعلِّم صالح، فكَّرت بأنه كان يمكن أن يكون الشلل النصفي من نصيبي لولا مشيئة الحظ. فقد كنت وإيَّاه، بعد توطُّد علاقتي به في العمل، على خلاف وخصام دائمَين. وذات مرَّة حملتُ الرفش لأضربه به.

رحتُ أستعيد مع المعلِّم صالح، وهو مقاول الورشة، أموراً غريبةً حول هذا الرجل لمْ أزعج نفسي في البحث عن أسبابها من قبل، كإصراره الدائم على أن يُشغِّل معه صبيًّاً صغيراً لا يتجاوز عمره الخامسة عشرة، وكان هذا الصبيّ لا يعمل شيئاً! فقد كنت أنا من يُنخِّل الرمل ويجبل الجبْلة وينقل الإسمنت ويفرشه أمام المعلِّم نبيل الذي يضع البلاطة ويطرقها بمطرقته طرقتَيْن ليستقيم الزيبق.

كان المعلِّم نبيل يأخذ الصبيَّ إلى مكان مجهول ويغيبان ساعة أو اثنتَيْن كلَّ يوم، ثم يرجعان والمعلِّم نبيل في غاية السعادة والانشراح. يجلس نبيل لصقاً بالصبي الذي علَّمه التدخين حديثاً، ويردِّد نكتته

المعهودة: «أحلى شي وقفة الصف: أنت قدَّامي وماهر وراي»! ثم يضحك كالأبله.

كان المعلِّم نبيل لا يأخذني على محمل الجدّ أبداً، وكان ذلك يناسبني ويفيدني في عملي، حتى أتى يوم سألني فيه إذا ما كنتُ ألعب الشطرنج؟ «قليلاً» أجبته. قال: «لا. ما بلاعب مبتدئين». ثم غيَّر رأيه عندما شعر بالضجر. ولعبنا.

وبثلاث حركات ماتَ ملكه! أصابه الذهول. وحين تكرَّرت هزيمته السريعة في الجولة الثانية أصابه الجنون!

«هذه خطة نابليون يا معلِّم نبيل! ألم تسمع بها؟» قلتُ له.

فأجاب بغضب: «يا حمار، عم قلَّك خمس سنين بسجن تدمر، كيف بدّك أعرف بخطة نابليون؟ أنا ما بعرف غير خطَّة حافظ الأسد... هيك هيك وهيك»... وكانت قطع الشطرنج قد تطايرت في كلِّ أرجاء الغرفة!

في تلك الليلة نزل المعلِّم نبيل وسهرَ مع زوج خالتي الذي كان قد عاد من إجازته، وسأله عني، فقال له زوج خالتي بأنني «شاعر ومثقَّف».

دخل نبيل عليَّ، وقبل أن يجلس قال: «اسمع، أنا ضميري مش مرتاح. أنت شخص متعلِّم وحرام شغلك هالشغل». وأبلغني قراره

إيقافي عن العمل!

لقد كان كلُّ ما يمرُّ بي من بؤسٍ شخصيٍّ في تلك المرحلة يدفعني دفعاً إلى أنْ لا أبقى متفرِّجاً وشاهدَ زورٍ على البؤس العامّ الذي نعيشه كشعبٍ تتوارثه العائلة الحاكمة كأملاك خاصَّة.

***

حين سلَّمتُ مقالي السياسيّ الأوَّل إلى إحدى الصحف اللبنانية المناهضة للنظام السوريّ، كان أمامي بضعة أيَّام فقط لزيارة سوريا للمرَّة الأخيرة قبل نشر المقال، وبالتالي إدراج اسمي في لوائح المخابرات كمعارض. وكان «ربيع دمشق» قد تكشَّف للسوريين عن أنه مجرَّد خدعةٍ لتجميل الوجه القبيح للنظام الذي سرعان ما كشَّر عن أنيابه ليُحوِّل هذا الربيع إلى حملة ترويع لكلِّ من تجرَّأ على فتح فمه.

لم أُضيِّع لحظةً بعد تسليم المقال. ركبتُ الباص إلى مدينة عاليهْ ومنها سافرتُ إلى سوريا. وصلتُ ليلاً إلى القرية، وكان بيتنا فارغاً لأنَّ أهلي آنذاك كانوا يقيمون في الشدَّادي على بعد مئات الكيلومترات. انتظرتُ حتى صباح اليوم التالي وبدأتُ جولتي.

جُلتُ على الجميع في القرية، وودَّعتُهم دون أن أخبرهم بما أنا مُقدِمٌ عليه.

وفي تلك الأثناء تذكَّرتُ «ناصر»، أحد أبناء عمومتي، الذي مات منتحراً بالسمّ. كانت حالة الانتحار الأولى في العائلة، وقد حدثتْ عندما كنتُ صبيًّا، فتركتْ أثراً بالغاً عليَّ. لقد سمعتُ بأنَّ «ناصر» قبل أن ينتحر جالَ على الجميع في القرية وودَّعهم دون أن يُخبرهم بما هو مُقدِمٌ عليه.

وللحظةٍ اندمج المشهدان في رأسي، وشعرتُ بأنني «ناصر» الجديد الذي يقوم بتوديع أهل قريته قبل أنْ يُقدم على الانتحار بملء إرادته. وخفتُ أن أندم كما ندمَ «ناصر» وهو ينازع على فراش الموت، حيث راح يرجو الطبيب بأن يُنقذه.

***

حين قفلتُ عائداً إلى لبنان، كانت المرحلة الأصعب عاطفياً بالنسبة إليَّ هي مرحلة اجتياز الكيلومترات الأخيرة من الأراضي السورية. كنتُ أرغب بتسجيل كلِّ شيء في ذاكرتي، كمؤونةٍ وجدانيةٍ لمرحلةٍ مجهولةٍ مقبل عليها دون أن أعلم عنها شيئاً.

لكنْ على العكس من ذلك، رحتُ أنظر من نافذة الباص بإحساسِ مَنْ يرى شيئاً من الماضي. كنتُ كأنني لا أرى مشاهدَ حيَّةً أمامي بل أُقلِّبُ في ألبومِ صورٍ قديم. صارت النافذةُ شاشةً لعرض لقطاتٍ قديمةٍ لبلادٍ رأيتها في الماضي. كنتُ أرى ما سيصبح من

الماضي وكأنه قد مضى فعلاً.

لقد اختلط عليَّ الزمن وأنا أشاهد بلادي للمرَّة الأخيرة.

***

بالطبع، هذه التفاصيل لم أذكرها لموظَّفة «المفوَّضية السامية لشؤون اللاجئين». وعندما سألتني عن المهن التي عملتُ بها قبل امتهاني الصحافة، اكتفيتُ بتعداد تلك المهن: مساعد بلَّاط، مساعد دهَّان، مساعد نجَّار، وأعمال حرَّة في التنظيف والعتالة.

- وليش ما صرت معلِّم بأي مهنة؟

أجبتها جواباً أيديولوجياً مضحكاً: «لأني كاتب»!

ابتسمت الموظَّفة، لكنها سرعان ما انتبهتْ إلى أني منفعل حقَّاً. وأربكها عدم وجود المناديل الورقية على الطاولة لتُعطيني منديلاً أمسح به عَرَقي الذي حماني زَخَمُ سيلانِه من إراقة دموعي.

الجلسة الثالثة

في الجلسة الثالثة كان الانتظار غريباً، لأنَّ الانتظار ليس لشخصٍ بل لمستقبلٍ. فأنا أجلس في قاعةٍ منتظراً مصيري. أنتظره وحيداً برفقة امرأة وحيدة أكثر مني. آه يا عزيزتي كم نحن وحيدان في هذه اللحظة. لقد سمَّعتُ حياتي في الجلسة الفائتة كتلميذ صغير. خفتُ أن أخطئ في ما عشته. أن أخطئ في ليلةٍ لم أنمْها بسبب الجوع والبرد. وأخطأتُ حقّاً في معلوماتٍ كثيرة. هل رأيتم أحداً يخطئ في معلومات حياته؟ يخطئ في يوم عاشه؟ كأني صرتُ شخصاً آخر! كأني حفظتُ حياتي ونسيتُها! كأني لم أعشها أبداً!

محاولة انتحار فاشلة

شتاء 2001، مرتفعات خَلْدة.

بعد أكثر من عامَيْن على البؤس والتشرُّد بين ورش البناء حين أعمل، وتحت الجسور حين لا أجد عملاً. بعد اليأس الكامل من أن أكون الشخص الذي أريده، قرَّرتُ أن أقوم بمحاولة انتحار تاركاً مسألة نجاحها وفشلها لقَدَري الذي لم يكن مفهوماً بالنسبة إليَّ. كنتُ أريد بهذه المحاولة صنعَ بيانٍ شخصيٍّ غاضبٍ ضدَّ هذا القَدَر غير المفهوم.

ضوء المغرب لم يُغادر أروقة الورشة المهجورة التي كنتُ أسكنها خلسةً في مرتفعات خَلْدة، والتي جهَّزتُ فيها ما يلزمني لهذه المحاولة: سكِّين، وشفرة أكثر رهافةً، ورزمة أوراق لأكتب عليها أفكاري الأخيرة التي لا أعرف عنها شيئاً بعد.

كنتُ صباح ذلك اليوم قد التقيتُ بالفتاة التي أحبُّها، في كلية الآداب - الأونيسكو ببيروت، ولسوء حظِّي فقد أُصيبتْ يومها بنوبةٍ عصبيةٍ حادَّةٍ، في العادة لا تضربها إلا حين تنسى أخذ الدواء،

وقد نسيت الدواءَ ذلك اليوم في المنزل. راحت ترتجف وترتجف، وأنا أرتجف معها مغموراً بكلِّ هذا الصقيع الذي ملأ حياتي.

كانت تلك الفتاة مأخوذةً بكلِّ الأحلام الكبيرة والشعارات الكبيرة والحالمة، وكانت متطرِّفةً في انتمائها إلى «الحزب السوري القومي الاجتماعي». لم تنتبه إلى حبِّي لها، أو ربَّما انتبهتْ ولم تجده جديراً بالاهتمام، أو ربَّما كانت تعنيها سوريَّتي أكثر مما تعنيها مشاعري نحوها. وكم آلمني في ذلك اللقاء الوداعيِّ أنها لم تشعر من نبرة صوتي بأنني على وشك أن أتحوَّل خبراً حزيناً ستسمع به في اليوم التالي.

غادرتُ المكان دون أن أقول لها شيئاً مهمَّاً، وانطلقتُ مشياً على قدميَّ من الأونيسكو إلى مرتفعات خَلْدة حيث الورشة والشفرة والأوراق.

جلستُ على لوحٍ خشبيٍّ عارٍ اتَّخذتُه سريراً لأشهر. لا شعور بالبرد على الرغم من أنَّ البرد شديد. لا شعور بالوحشة على الرغم من أنَّ المكان موحش. شَرْطة خفيفة على ذراعي اليمنى بالسكِّين، وبدأ الدم يسيل ببطءٍ. جرح عادي سيتوقَّف بعد قليلٍ إن لم أُوسِّعه بنفسي. أتركه يلتئم فيتوقَّف النزف. شَرْطة أخرى أسفل الشَّرْطة الأولى، والسيناريو ذاته. شَرْطة ثالثة ورابعة... رميتُ

السكِّين جانباً، واستعملتُ الشفرةَ جارحاً معصمي. الجرح عميق هذه المرَّة، والدم لن يتوقَّف ما لم أُوقفه بنفسي.

***

هل للجوع الحقيقيِّ، ولأيَّام متواصلة، معادلٌ من الكلام حقَّاً؟ هل للشقاء والظلم والنوم في الشوارع والأماكن المهجورة فرصةٌ للتجسُّد في مقاطع حقيقية من الشعر كما كنت أحاول أن أفعل؟

الأصوات التي يسمعُها المنتحرون، عادةً، لم أسمعها.

كنتُ ممزَّقاً بين حالتَيْن عاطفيتَيْن: واحدة صاخبة أشبه بالمارش العسكريِّ، وأخرى هانئة أشبه بالاستسلام للغرق. رحتُ أكتب وأكتب مشتَّتاً وحرَّاً مثل حبَّات عقدٍ انفرطَ فجأةً. كانت الكلمات تتدفَّق بغزارة الدم المتدفِّق من شريان يدي المقطوع.

لكني حين فكَّرتُ بأنَّ الصحف ستكتب بعد العثور على جثَّتي: «عُثِرَ على عاملٍ سوريٍّ منتحراً...»، مزَّقتُ قطعةً من قميصي ولففتُ بها معصمي لأقطع الدم الفائر الذي لطَّخ أوراقي وملابسي. كنتُ أريد أن أموت شاعراً. كنتُ أريد أن يُقال: «عُثر على شاعرٍ سوريٍّ منتحراً...».

الجلسة الرابعة

مرَّت الجلسة الرابعة على عكس الجلسات السابقة مع بعض المرح بعدما اعتدتُ على أجواء «التحقيقات». ابتسمت الموظفة مرَّات عديدة للأجوبة التي أجبتُها ظنَّاً منها أنني أمزح! هكذا في اللحظات التراجيدية في حياتي يظنُّني الآخرون أمزح، حتى صرتُ مقتنعاً بأنَّ ألمي أحياناً يأخذ شكلَ المهرِّج والبهلواني.

***

تتضاعف قوَّة الألم حين يأخذ شكلَ المهرِّج. مثل هذا الأمر يصبح شبيهاً بالتمثيل بالجثث، حيث الموت لا يكفي، ولا بدَّ من زيادة قسوة هذا الموت عبر تشويه الـميِّت.

الضحك من الألم هو قسوة إضافية تجعل الألم لا يُطاق إلا بمشاركة الآخرين الضحك عليه.

ينقسم المتألِّم إلى شخصَيْن: شخص يشعر بالألم وشخص يشارك الآخرين الضحكات على هذا الألم.

في إحدى مناسبات الاحتفال بـ«الحركة التصحيحية» -وهي

الاسم المُحرَّف لحركة الانقلاب التي قادها حافظ الأسد على زملائه في «حزب البعث» سنة **1970**- كان عليَّ أن أقف مع رفاقي الطلَّاب خمس ساعات على خشبة المسرح من أجل إنشاد بعض الأناشيد الحزبية الحماسية للشعب ولـ«حبيب الشعب» كما كان يُسمَّى حافظ الأسد في «الأغاني الوطنية».

كان لباس المراسيم مُربكاً لفتى خجول مثلي: دندشات وشراشيب حمراء تتدلَّى من على كتفيَّ، وبيريه حمراء يتوسَّطها شعار «حزب البعث»، وعلى صدر بدلة الفتوَّة الزيتيَّة نيشان على شكل مجسَّم نحاسي صغير لـ«القائد الرمز».

كنت أقف رافعاً صوتي ويدي اليمنى، بين فتيةٍ ملأوا أذرعهم بأوشمة عن الحبيبة والهجر وبعضها عن «السيِّد الرئيس»، مردِّداً هتافات جديدة علَّمونا إياها منذ يومَيْن. وفي غمرة هتافنا الحماسيّ على المسرح، فجأة، ومن دون أن أشعر إلَّا بوخزٍ طفيفٍ في يدي اليمنى التي كنت أُحرِّكها جيئةً وذهاباً في الهواء، وجدتُ نفسي محاطاً بمدرِّبة الإنشاد وبأستاذ التربية العسكرية وهو يضربني على وجهي كي أصحوَ، لاعناً أهلي وسلالتي.

فبعدما أُغميَ عليَّ ووقعتُ في عزِّ حماسةِ الإنشادِ الحزبيِّ على المسرح، قال رفاقي إني كدت أُحوِّل الحفل إلى مسرحية، وإنَّ رجال

الأمن هبّوا لتسجيل أسماء كلِّ من ضحكَ في تلك اللحظة، وإنهم قد يحقِّقون معي. ولحسن الحظِّ لم يحقِّقوا معي، لكن ذلك المشهد الكئيب الذي وصفه لي أصدقائي ضاحكين، ظلَّ يؤلمني حتَّى وقت طويل: طالب في الرابعة عشرة من عمره يقف على المسرح فيُغمى عليه، ويقع بكامل لباس المراسيم، كاسراً الميكرفون المنصوب أمامه... الميكرفون الذي بات عاجزاً عن التقاط أنفاسه وهو مُمدَّد على المسرح، وما زالت يده اليمنى تتحرَّك بانتظامٍ مع الهتاف، مع فارق أنها راحت تدقُّ الآن على خشبة المسرح.

***

اصطنعت الموظفة الانشغال في البحث عن ملفٍّ في جارور أسفل الطاولة، ربَّما لتُعطيني فرصةً لأسيطر على عواطفي بعدما لاحظت اضطرابي. وأنا بيني وبين نفسي تابعتُ الحكاية:

هذا كان عن الألم والضحك. لكن ماذا عن الرعب والضحك؟

ففي «سوريا الأسد» كلَّما كنَّا مرتعبين أكثر صرنا مضحكين أكثر. وما دمنا في حديث المهرجانات لا يمكن أن أنسى ذلك الرجل الستِّينيّ الذي كان نائماً وهو واقف في مهرجان خطابيّ، وحين نبَّهه زميله إلى أن عنصر المخابرات لاحظَ نومه، زعق هاتفاً باسم الرئيس، قاذفاً -من دون قصد- طقمَ أسنانه الاصطناعي في ياقة

الرجل الواقف أمامه!

ولأننا لم نستطع كبت ضحكاتنا لحظتها من هذا المشهد العجائبي، لم يكن أمامنا سوى أن نهتف ونهتف بكلٍّ ما أُوتينا من قوَّة، لنُمرِّر شحنات ضحكنا المكبوت عبر الصراخ والهتاف مع تحريك قبضات الأيدي.

***

انتهت الموظفة من البحث في الجارور. وعلى عكس ما ظننتُ، لم تكن تُمثِّل ذلك لإعطائي فرصة لالتقاط أنفاسي، لأنها أخرجت فعلاً استمارة معلومات إضافية طلبت مني أن أساعدها في ملئها.

وبعدما انتهينا، دفعت الاستمارة إلى الأمام وقالت: «وقِّعْ هنا رجاءً».

- بالدم؟ سألتُها ضاحكاً.

وضحكتْ معي دون أن تفهم قصدي.

بالطبع لا يُوقَّع بالدم، بل يُبصَم بالدم. وفي عسكريتي سنة 1998 يوم وقفنا في الطوابير كي نبصم بالدم على إعادة انتخاب الرئيس حافظ الأسد، قلتُ للضابط الذي يغرز الدبُّوس في أصابعنا: «أريد أن أُوقِّع لا أن أبصم».

نظر الضابط إليَّ باستغراب قائلاً بغضب: «وكيف بدّك توقّع

بالدم ولاه؟».

لا يُوقَّع بالدم. كنا نفهم ذلك ببديهة الخائفين. لذلك كنَّا نهتف ونبصم ولا نناقش كثيراً. الدم حبرنا الانتخابي.

***

وقَّعتُ الورقة دون أن أشرح للموظَّفة اللطيفة معنى مزحتي السمجة.

باسل الأسد؛ «مو غلط»

بعد أيام قليلة من تلك المقابلة، وأنا في طريقي إلى عملي في شارع الحمراء، التقيتُ بالصدفة الموظَّفة نفسها التي «استجوبتني» في الجلسة الأخيرة. وقفنا لبضع دقائق إلى جانب جدار، وتحدَّثنا بحرِّية أكثر. كانت قد قرأتْ كُتيِّباً لي أهديتُها إيَّاه. لذلك قالت لي مازحةً بأنني لم أُنبِّهها إلى أنه قاسٍ إلى هذه الدرجة. ثم أردفتْ ضاحكة: «بس، مو غلط»! ثمَّ سألتني عن اسم المسلسل الذي أخذتُ منه هذه العبارة؟

- مسلسل سوريّ اسمه «نهاية رجل شجاع»، والشخص الذي كان يردِّد هذه العبارة في المسلسل يُدعى «زلغوط».

- وهل ما أوردتَه صحيح عن تحريم ترديد هذه العبارة منعاً للإساءة إلى باسل الأسد؟!

كنتُ أشعر بصدق تلك الفتاة في محاولتها التعرُّف إلى شخصيتي أكثر خارج دور الموظَّفة - المحقِّقة، وكأنني لم أعد بالنسبة إليها «طالب اللجوء رقم كذا»، بل أقرب إلى شخصية في فيلم سينمائي.

لكن هل بوسعي الاستطراد حقًّاً في الشارع وسط زمامير السيَّارات وفضول المارَّة وحرارة الجوّ في بيروت، ناهيك عن أنني مستعجلٌ للحاق بعملي؟

***

كنتُ في السابعة عشرة من عمري حين عمَّ النبأ الغريب بوفاة باسل الأسد، الابن الأكبر للرئيس حافظ الأسد، بحادث سير قرب مطار دمشق يوم 21 كانون الثاني 1994. ذعرٌ عامّ دفع الناس إلى التزام بيوتهم مع إقفال البوَّابات، وكأن ذلك الذعر هو مجرَّد بروفة للذعر الأكبر الذي سيُصيب الناس عند موت والد باسل الأسد بعد ست سنوات.

كنَّا في الداخل صامتين نتهامس همساً، وكلّ منا في داخله يشعر بأن المخابرات بين لحظة وأخرى ستطرق باب البيت لتقبض عليه. قام أبي وأشعل التلفاز وأخفت الصوت إلى أقصى درجة ممكنة، فإذا بآيات قرآنية تُتلى على الشاشة ثمَّ عزف كلاسيكي على البيانو استمرًّا لأيام طويلة.

اتصلوا بوالدي من مقرّ عمله فذهب فوراً، ثم أمضى معظم أيام الأسبوعَيْن التاليَيْن في خيمة العزاء الكبيرة التي نصبوها في مدينة الشدَّادي شمالي سوريا، حيث كانت تقيم عائلتي، لتقبُّل

العزاء برحيل «الفارس الذهبي المهندس المظلّي الرائد الركن باسل الأسد»؛ وهذه الجملة بحَرفيَّتها كانت تُعتبر كلاماً مُنزَلاً لا يمكن ذكر اسم باسل الأسد من دونها، في التلفزيون وفي المدرسة وفي الشارع.

آنذاك سمعتُ من صديقٍ يثق بي كثيراً «أخطر» نكتة يمكن أن يسمعها سوري في ذلك الوقت، وتقول النكتة إن باسل الأسد عندما مات وصعد إلى السماء كان الله نائماً، فطرق باسل الباب، وحين فتح الله، قدَّم باسل نفسه إليه كالآتي: «الفارس الذهبي المهندس المظلّي الرائد الركن...» فإذ بالله يُقاطعه ساخطاً: «تعال إذاً واجلسْ مكاني»!

لم أُخبر أبي آنذاك بالنكتة كي لا أفقد نظّارتي بلكمةٍ على الوجه، إضافة إلى أنه كان ناقماً بصمتٍ في ذلك الوقت على بائع الأقمشة السوداء في مدينة الشدَّادي. فقد جرى تعميم أمرٍ يقضي برفع راية حداد سوداء على باب كل بيت في المدينة، ومثلها على المرايا الجانبية للسيَّارات. وقد أُجبر الجميع على شراء قطع القماش السوداء تلك من محلّ محدَّد من قبل مفرزة المخابرات، وبأسعار تكاد تكون خيالية بالنسبة إلى أسعار القماش في تلك الأيام، وقد كان لمفرزة المخابرات بالطبع حصَّتها الكبيرة من أرباح تلك المبيعات.

وبعد مئات التماثيل لحافظ الأسد التي ملأت معظم الساحات

في سوريا، جاء دور تماثيل الابن التي استكملت المشهد الرمادي لحكم العائلة المطلق.

وفي مدينة الشدَّادي الصغيرة لأنه لا توجد ساحات بالمعنى الفعلي تصلح لإقامة تمثال «الباسل»، قاموا بارتجال جزيرة غريبة في الطريق الإسفلتي نصبوا عليها التمثال الذي يوجد منه في كل مدينة سورية النسخة نفسها، حيث يرسم هذا التمثال كلمة «الباسل» وعلى أحد جانبَيْها صورة لباسل الأسد ممتطياً حصانه «الأغر». لقد كنَّا نحفظ حتى اسم حصانه لكثرة ترديده على التلفزيون السوري. بل إن هذا الحصان ربما كان أول حيوان في التاريخ تُسمَّى باسمه مرافق عامة لدولةٍ عضو في «هيئة الأمم المتحدة»، من صالات وملاعب وحدائق.

لقد تحوَّل باسل الأسد وحصانه وكل شيء يتعلَّق به إلى أشياء مقدَّسة. فمهرجان فنِّي سنوي للباسل، ودورة الوفاء الدولية للباسل في الفروسية، وحدائق الباسل...

وبعدما تحوَّل حافظ الأسد في الإعلام السوري من «أبو سليمان» (الاسم التقليدي له فهو ليس لديه ولدٌ بهذا الاسم) إلى «أبو باسل» قبل سنوات من الحادثة تمهيداً لتوريثه كرسي الرئاسة... مات باسل! وكأنَّ حافظ الأسد لا يستطيع أن يكون أباً

إلا لأشخاص غير موجودين!

كان اسم «الأب القائد» أيضاً من أسمائه الكثيرة التي فاق عدُدها عددَ أسماء الله الحُسنى. كنّا نناديه بهذا الاسم (الأب القائد) في مدارسنا، بعدما تكفَّلت قسوة آبائنا الحقيقيين بإقناعنا بأن شخصاً بقسوة حافظ الأسد يمكنه أن يكون أباً.

يومها كرَّر التلفزيون السوري عشرات المرَّات حكاية «اللفتة الكريمة» من «الأب القائد» الذي لم ينسَ شعبه يوم وفاة ابنه فأطلَّ عليهم من الطائرة وحيَّاهم. كان دهاء حافظ الأسد جزءاً من صورته المرعبة، ففي خضمّ مأساته العاطفية بموت ابنه لم ينسَ صورة «القائد» التي يجب عليه أن يصونها. وعلى العكس من غريمه صدام حسين الذي كان صورةً خالصةً للبطش في الضوء، كان حافظ الأسد صورةً خالصةً للبطش في العتمة. كان دهاؤه هو تلك العتمة البلا قرار. لذلك كان أكثر إثارة للخوف في نفوسنا.

وفي كلمته الرثائية على التلفزيون السوري، قال حافظ الأسد بأن «رحيل باسل آلمني لأنني أب». ولا أعرف إذا كان قد مرَّ بخاطره في تلك اللحظة آلاف الآباء الذين حَرَمَهم هو من أبنائهم قتلاً وسجناً ونفياً. لكن تلك الجملة كانت أقلّ سوداوية بكثيرٍ من الجملة التي تلتها: «لم أحزن عليه لأنه ابني فقط بل لأنه يحملُ في

شخصه العديد من المواهب». فهذه الجملة كادت تُفقدني صوابي بعد سنوات قليلة، وأنا أسمعها تُعاد على التلفزيون السوري في ذكرى رحيل باسل الأسد، وكنتُ عاطلاً عن العمل في بيت أهلي بعدما رجعتُ من لبنان خائباً جائعاً بهيئة أي متسوِّل كان ينام تحت جسر الكولا في بيروت. ونحنُ ألا تستحقُّ مواهبنا بعض الالتفات يا «سيادة الرئيس»؟

وفي حين كان صدام حسين دكتاتوراً مفضوحاً يتباهى بقصوره وفحشه وغروره، كان حافظ الأسد حريصاً أشدَّ الحرص على ألا يضع رِجلاً على رِجل أثناء تصويره عند استقبال زائريه. وكان البسطاء من الناس يتحدَّثون عن ذلك إعجاباً بتواضعه، متناسين مئات التماثيل وملايين الصور التي ملأ بها مدن سوريا وقراها. واليوم، بعدما كبرتُ -أنا الصبي في ذلك الزمن- أحاول ألَّا أحقد كثيراً على جيل الآباء الذين صدَّقوا أن في وسع السفَّاح أن يكون متواضعاً وأخلاقياً لمجرَّد أنه لا يضع رِجلاً على رِجل.

لقد نجح الخوف في تسطيح الناس بشكل عجيب، حتى صار كل ما يصدر عن السلطة أمراً مقدَّساً. وفي زمن الترويج لبشار الأسد من أجل خلافة أبيه، أذكر حديثاً دارَ بيني وبين أحد أصدقاء أبي حيث قال لي بحماسةِ المكتشِف:

- بتعرف إنو الدكتور بشار طِلِعْ عبقري؟

- وكيف عرفت؟

- قرأت ذلك بمجلة «جيش الشعب»!!

يومها ضحكتُ ولم أناقشه، لأني كنت أعرف تماماً ألّا أمل يُرجى من مناقشة جيل الآباء الذي سلَّم سوريا وسلَّمنا نحن الأبناء إلى قبضة حافظ الأسد.

كنتُ أندهش من سهولة تصديق هؤلاء لكل ما يقوله التلفزيون الحكومي ولكلِّ ما تكتبه الجرائد الحكومية. وقد ازداد مأزقي حدَّةً أثناء خدمتي العسكرية حيث كان علينا الهتاف عشرات المرَّات، وبشكل يومي، لثلاثة من عائلة الأسد:

«بالروح بالدم نفديك يا حافظ».

«بالروح بالدم نفديك يا باسل».

«بالروح بالدم نفديك يا بشار».

وبين هؤلاء الثلاثة كانت سوريا غائبة، أو كانت سوريا ضائعة، أو كانوا هم سوريا. ولا أعرف مَنْ كنَّا نحنُ حقّاً!

كان الضابط يطلب منَّا الهتاف لباسل (الميِّت)، مستدركاً كلامه بانفعال: «لكْ حتى الميتين بعائلة السيد الرئيس لازم تفدوهن بالدم»!

كانت دماؤنا وأرواحنا -بشكل مبتذل- على ألسنتنا دائماً لفداء العائلة المقدَّسة. كنَّا نُجبَر على الوقوف عراةً في الثلج في عزِّ شتاء معسكر شَمْسين العسكري في حمص كي نُثبت لسيادة الرئيس ولاءنا له. وكنَّا نزحف على ركبنا وأكواعنا على الشوك والحصى حتى تسيل دماؤنا كي نثبت للأسد بأننا أُسُود مثله. وأثناء ذلك كرهنا حيوان الأسد، مع أنه كان أيقونتنا في الطفولة، وخاصة أبناء جيلي. فقد كان لدينا ثلاثة أقانيم معشوقة، نحن أطفال ثمانينيات القرن الفائت في سوريا، وهي: غراندايزر (بطل كرتوني)، وزيكو (نجم منتخب البرازيل)، والأسد (ملك الغابة).

كنَّا مغرمين بحيوان الأسد ولبدته الجميلة ولونه الذهبي وبطشه بفريسته، حتى أننا حقدنا آنذاك على مسلسل كرتوني يظهر فيه الفيلُ ملكاً للغابة بدل الأسد.

لقد ملأ الأسد وعائلته كلَّ ما نراه. ملأ طفولتنا وشبابنا وليلنا ونهارنا. لم تبقَ مادة أو مُنتَج أو سلعة في سوريا لم تتبارك بالقائد وولدَيه «الفارس» و«الدكتور»: ستائر مزركشة بحِكَم القائد، أواني زينة عليها رسم القائد، دفاتر مدرسية... أذكر أني ظللتُ طوال سنتي المدرسية الأولى أظنُّ بأن الصورة التي تُزيِّن دفاترنا المدرسية هي صورة مدير المدرسة الذي كانوا يُخوِّفوننا به، وأن اسم حافظ

الأسد الذي نهتف له هو اسم هذا المدير الذي كنَّا نسمع بأنه يضرب المعلمين بحزام بنطلونه ويُعلِّق الأطفال على أعمدة الكهرباء.

بل إن الأسد وعائلته احتلَّا حتى الوقت وساعات اليد. فقد انتشرت في سوريا ساعات تحمل خلفياتها صورة الثلاثي المقدَّس: حافظ، باسل، وبشار. كان السوري ينظر إلى الساعة لمعرفة الوقت، فيرى عائلة الأسد. العائلة التي عليك ضبط عقارب ساعتك على إيقاعها وزمنها. كان شكل العقارب التي تدور فوق الصورة يأخذ دلالته منها. لا عقرب يدور من دون مشيئة القائد وعائلته.

ولكنْ تخيَّلوا مواطناً يريد معرفة الوقت، فيُقرِّب معصم يده اليسرى من عينَيه، فيرى صورة القائد أولاً، ثمَّ ولدَيه، ثمَّ الساعة بأكملها، ثمَّ ينتبه إلى العقارب مستطلعاً الوقت بين أذرعها! هذا المشهد بفعل التكرار والروتين لن يبقى على حاله: صورة القائد ستصبح شيئاً فشيئاً أمراً بديهياً كالعقرب والكستك والزنبرك. ينظر السوري كي يعرف الزمن فيرى وجه القائد عابساً: الساعة السابعة صباحاً. صباح الخير يا سيادة الرئيس. صباح الخير أيها الفارس الذهبي. صباح الخير يا سعادة الدكتور. صباح الخير يا عائلة السيِّد الرئيس.

وكم كانت دهشتي كبيرة وأنا أقرأ كتابَ مذكِّراتٍ لمعارضٍ

عراقيٍّ تحدَّث فيه عن ساعاتِ يدٍ عراقيةٍ كانت تحمل أيضاً صورة صدام حسين وولدَيْه!

إنها صورة الوقت في بلاد الاستبداد، وصورة الزمن الدكتاتوري. لقد تدخَّل الاستبداد في كلِّ تفصيل من تفاصيل حياتنا، في سوريا والعراق، بشكل يكاد يكون متطابقاً. حتى في النكات. فثمة نكتة مشتركة بين العراقيين والسوريين لا يختلف فيها سوى اسم الرئيس. وتقول النكتة إن الرئيس حافظ الأسد في سوريا (أو الرئيس صدام حسين في العراق) تنكَّر ذات يوم واندسَّ بين جموع مواطنين يشاركون في مهرجان حزبيّ ليختبر مدى صدقهم وولائهم له. وحين ذكر الخطيبُ اسمَ حافظ الأسد بدأت الجموع بالهتاف والتصفيق... باستثناء الأسد المتنكِّر. فإذا بأحدهم -خوفاً عليه- يحثُّه على التصفيق قائلاً: «صفِّقْ صفِّقْ... وإلَّا اغتصبوا أُمَّك»!

لقد ضيَّع أبناءُ ثلاثة أجيال أعمارَهم مُرغمين على حمل صور طالما أرعبتهم، وعلى تقطيع حبالهم الصوتية بشعاراتٍ طالما كرهوها. كان الناس يهتفون متلفِّتين لاستطلاع وجوه المخابرات بينهم. كلُّ صديق هو رجل أمن افتراضي، وكلُّ جار هو مشروعُ عنصر مخابرات. وفي كلِّ مدينةٍ سوريةٍ تشيع العبارة القائلة إنَّ رئيس

المخابرات فيها قال لبعض أبنائها إنه لا يحتاج إلى توظيف مخبرين لديه، لكثرة الوشاة والجواسيس في هذه المدينة! هكذا حوَّلوا أفراد الشعب إلى شبكة مخابرات عبر زرع الشك والريبة في نفوسهم. وهكذا أصبحت المخابرات فعلاً شعبياً، وزمناً شعبياً، ومرضاً شعبياً.

وكانت الشائعة في تلك السنوات جهازاً حقيقياً للحكم كأي جهاز أمني. كان يكفي القول: كذا وكذا... ليبتعد الناس عن كذا وكذا. شائعةٌ واحدةٌ تُطلقها المخابرات كفيلة بتدمير حياة أيِّ إنسان. وهذا ما حصل لممثِّل شابّ من محافظة السويداء. فقد بدأ الناس بتداول حكايةٍ تقول إنَّ هذا الممثِّل أُلقيَ القبض عليه متلبِّساً وهو يتصفَّح موقعاً إسرائيلياً! (كانت الإنترنت آنذاك بالنسبة إلينا مجرَّد فكرة غائمة عن شيء سحريّ يُعتبر من الكماليات). وفي اليوم التالي قالوا: لم يكن موقعاً بل كان يتَّصل بالموساد! وفي اليوم الثالث تأكَّدوا بأنه جاسوس! وفي اليوم الرابع أو الخامس صَحَت المحافظة على خبر أنه قد شُنِقَ!

كان هذا الممثِّل المسكين آنذاك في قمَّة نجوميته بسبب تمثيله دور البطولة في مسلسل سوريّ يحمل اسم -ويا للمفارقة- «أبناء القهر». كثرٌ من الناس بكى حين سمع خبر شنقه. لكنه في الحقيقة

لم يُشنَق، كما أنه لم يكن على علاقة بالموساد. والحكاية ببساطةٍ أنه انتقد الوضع القائم في سوريا في إحدى الندوات، وحُكِمَ عليه بالسجن بسبب ذلك لأكثر من ثلاث سنوات بتهمة «نشر أنباء كاذبة تضرُّ بأمن الدولة». ولأن ذلك لم يشفِ غليل من سجنوه، اخترعوا قصَّة جاسوسيته وشنقه لتدمير سمعته، ونشروها بين الناس كحقيقة مؤكَّدة.

أما شائعة «مو غلط»، فحكايتها أنه قبل موت باسل الأسد بأشهر قليلة، كان مسلسلٌ سوريٌّ يحمل اسم «نهاية رجل شجاع» قد اكتسح بشعبيته جميع الأوساط في سوريا وباتت تفاصيله حديثَ الناس اليوميّ. وكان من أشهر ما تناقلته الناس عنه جملة ظريفة يُردِّدها أحد أبطاله بتهكُّم: «مو غلط».

لكنْ فور موت باسل الأسد انتشرت، فجأةً، شائعةٌ تقول بأنَّ كل من سيُردِّد عبارة «مو غلط» ستعتقله المخابرات! والسبب أنهم وجدوا على جدران مدينة حماة (التي دمَّرها حافظ الأسد في الثمانينيات) صوراً لباسل الأسد كُتِبَ تحتها: «مو غلط»!

ولم يكن ينقص الناس آنذاك سوى هذه الشائعة لإتمام رعبهم، خصوصاً أن أولادهم كانوا يُردِّدون تلك العبارة باستمرار وتهكُّم...

طبعاً لم أسرد ذلك كلَّه على الفتاة المسكينة الواقفة تحت الشمس

لتعرف أكثر عن حياتي، بل فقط اكتفيتُ بالتأكيد على أن الحكاية حقيقية، وبأن أبي أوسعَ أخي الصغير ضرباً بسبب عدم قدرته على منع نفسه من تكرار هذه العبارة: «مو غلط».

وحين هالتها فكرةُ أنَّ طفلاً صغيراً يُضرَب لسببٍ كهذا السبب، حكيتُ لها -لصرفِ الانتباه- نكتةً عن «بعثيَّتي» المبكرة. فعندما كبرتُ أطلعني والداي على تسجيلٍ صوتيٍّ لي حين كنت في الثالثة أو الرابعة من عمري، وكانت المفاجأة أنني غنَّيتُ فيه أغنية بعثية بعنوان «شبيبة عروبة».

ضحكت الفتاةُ كثيراً، وضحكتُ معها، وأنا لا أعرف حقيقةً كيف أُفهمها بأنني إلى اليوم أذهب -وبلا أيِّ سببٍ مفهوم- إلى موقع «يوتيوب» وأضع في محرِّك بحثه جملة: «خطاب لحافظ الأسد».

المصحِّح

وصلتُ إلى مكتبي في المجلَّة الفنِّية التي كنتُ قد بدأتُ العمل فيها كسكرتير تحرير منذ حوالى السنة، مع مواظبتي على الكتابة في السياسة والثقافة في بعض الصحف.

وكان قد أُضيف إلى هذه الأعباء عبءٌ آخر يتمثَّل في عملي بعد الظهر في مكتب جريدة كويتية، قريب من مكتب المجلَّة الفنِّية التي أعمل فيها، في حين كانت زوجتي قد سافرت إلى الكويت لتلتحق بعملها هناك كمسؤولة عن القسم الثقافي لهذه الجريدة، وكان من المفترض أن ألتحق بها أنا أيضاً، لكني لم أكن أملك جواز سفر، فقد رفضت السلطات السورية الطلب الذي تقدَّم به أحد أخوتي في سوريا بالنيابة عني لاستصدار جواز سفر، بل إنه تبيَّن في ما بعد وجود مذكِّرة توقيف سياسية بحقِّي صدرت سنة 2005. والأدهى من ذلك أن وجودي في لبنان بات غير شرعيٍّ منذ سنوات، حيث لم يعد في استطاعتي الوصول إلى الحدود اللبنانية السورية لتجديد البطاقة البيضاء التي تُشرِّع لحامليها من التابعية السورية الإقامة

لمدَّة ستة أشهر في لبنان. لقد كنتُ سجيناً لا ينقصه سوى بعض القضبان. وهذا ما حصل معي على كلِّ حالٍ في ما بعد.

كنتُ أخرج في الساعة الثامنة والنصف صباحاً، ولا أعود قبل الواحدة بعد منتصف الليل. وكلُّ هذا الشقاء المتواصل والعمل شبه الانتحاريّ كان من أجل جمع أكبر قدر ممكن من المال يضمن انطلاقةً مستمرَّةً للمجلَّة الشعرية التي كنتُ أحلم بإصدارها والتي كنتُ قد سرَّبتُ للصحافة أخبارَ تأسيسها.

***

وكالعادة، قبل البدء بتصحيح المواد المكدَّسة على الطاولة أمامي، دخلتُ إلى مكتب مدير المؤسَّسة الذي لا يأتي قبل الساعة التاسعة والنصف، وقرأتُ عناوين الصحف ومررتُ سريعاً على بعض المقالات في قسمَي الرأي والثقافة. صنعتُ النسكافيه في فنجاني الذي لا أغسله إلا نادراً. وعادة الشرب في كوب اليوم الفائت دون غسلٍ هي عادة من عادات أيام البؤس أحتفظ بها إلى اليوم، لما تُوفِّره لِي من متعةٍ لا أعرف سببها. وكالعادة احتجَّتْ زميلتي في المكتب ووبَّختني بمحبَّةٍ على هذه العادة المشينة، قبل أن أرفض تبرُّعها بغسل الكوب، ثم أجادلها في المسألة جدالاً بيزنطياً، محاولاً إضفاء مسحة فلسفية على هذه القذارة غير المفهومة.

تصفَّحتُ المواد الموضوعة أمامي، المكتوبة بخطِّ اليد، لأعرف أيُّها أكثر حيوية فأبدأ بتصحيحها. فعمل كهذا يحتاج الكثير من الحوافز والتعبئة النفسية للاستمرار فيه، خصوصاً حين يكون مَنْ يعمل فيه شخصاً شبه راديكالي. فعلى الرغم من أن المجلَّة التي أعمل فيها كانت أفضل بكثير من المجلَّات الفنِّية الأخرى من الناحية المهنيَّة -حتى أنها لا تُعيِّن في منصب سكرتير التحرير إلا الأدباء والشعراء- إلا أنني كسكرتير تحرير مضطرّ إلى التعامل مع الكثير من المواد الإخبارية فاقدة القيمة. كذلك كان عليَّ بعد تصحيح المواد المكتوبة غالباً بخطٍّ يدٍ رديء وبأخطاء إملائية لا تخطر على بال، استخراج عنوان لامع من حوارات سطحية لفنانين يشك المرء بأنهم دخلوا المدرسة أصلاً. أيضاً كان عليَّ تحمُّل نرجسية بعض الأشخاص مثل ذلك الشيف المشهور الذي اشترط على المجلَّة -وكأنه زعيم سياسي- قراءة الحوار قبل النشر «كي لا تُزوِّروا لي أقوالي»! قال لنا! وكأننا سنُزوِّر البقدونس فيصير كزبرةً، أو سنزوِّر الثوم فيصير بصلاً!

لكنْ في مقابل هذه الصعوبات، كانت المجلَّة كنزاً حقيقياً لكلِّ كاتب يحلم بكتابة رواية من لحم ودم. لقد عرفتُ من خلالها كيفية صنع العُمق الروائي لأناس سطحيين. كيفية فهم الحاجة الإنسانية

الحقيقية للدجل والرياء. كيفية تمييز الخروف الذي لم يُعطَ الفرصة ليكون شيئاً آخر في قطيع متشابه. لقد كان عملي في مجلَّة نسائية اجتماعية تجربةً كاملةً غيَّرت نظرتي إلى الحدث والشخص والحياة بشكلٍ جوهريٍّ.

ذات يوم تحدَّثتُ إلى أحد مدمني المخدِّرات ممَّن استضافتهم المجلَّة للحديث عن تجربتهم. راح يُحدِّثني عن أنَّ أكبر مشكلة تواجهه كمدمن هي مشكلة التعامل مع مشاعره، فهو إذا فَرِحَ يُصبح مخيفاً، وإذا حزنَ ييأس بسرعة. «تطرُّف سيكولوجي في كلّ شيء» قال لي، وراح يتوسَّع في الشرح بطريقة فذَّة تمزج المعلومة بالتجربة. سألته يومذاك: لِمَ لا تكون كاتباً؟ فقال لي ضاحكاً: ألا يكفيني أنني مدمن مخدِّرات حتى تُضيف لي مصيبة أخرى؟!

والأهمّ من ذلك أنَّ المجلَّة كانت، ومجموعة من المجلَّات الشبيهة الأخرى، تمثِّل -رمزياً- فهمَ تيَّار واسع من اللبنانيين لبلدهم ودوره، بل وتعصُّبهم لهذا الفهم. فهم ينظرون إلى لبنان كبلدٍ للموضة والأزياء والجمال والفنِّ والسياحة، في مقابل آخرين يرفضون هذه الصورة حتى وصل الأمر بأحد إعلامييهم البارزين إلى أن يقول لإحدى المحطَّات الفضائية بأنَّ لبنان لم يعد «بلد الحمُّص» بل «بلد الكاتيوشا»... في إشارة غامزة من الذين يطالبون بتبريد الجبهة مع

إسرائيل من أجل إنجاح الموسم السياحيّ.

والحقيقة أنني كنتُ قد بدأتُ العمل في هذه المجلَّة في ذروة هذا السجال، مع بداية حرب تمُّوز 2006. وأذكر أنه كان ثمَّة نقاش بين مسؤولي المجلَّة عن إمكان تناول هذه الحرب في مجلَّة موضة وأزياء ومجتمع. وقد أخذ النقاش طابعاً شبه تفاوضيٍّ، حيث كان ثمَّة في المجلَّة مَن أصرَّ على عدم تجاهل الحرب. وإضافةً إلى حججه الأخلاقية المقنِعة التي قدَّمها بلا كللٍ، قدَّم حجَّةً وجيهةً مفادها أن البنايات التي يسكنها «المجتمع المخملي» (جمهور المجلَّة) في بيروت تهتزُّ مع سقوط كل قذيفة على الضاحية الجنوبية. ولذلك قرَّرت إدارة المجلَّة تخصيص روبرتاج من سبع صفحات يتناول الحرب، إنما من زاوية التركيز على الأطفال كمأساة إنسانية، ودون الدخول في «السياسة».

لقد غذَّت هذه المجلَّة، أو بالأحرى عملي فيها، شغفي بالتعرُّف إلى فروقات التفكير «الطبقي» في لبنان. عرَّفتني إلى ما يُسمَّى «المجتمع المخملي»، حتى اكتشفتُ بأن المخمل -ولا بدَّ- هو الاسم الفنِّي للخواء!

كذلك قرأتُ -أثناء تصحيحي مواد المجلة- غرائبَ القصص عن المجتمعات العربية، كقصة الطفل الكويتي الذي لا يفتح فمه

ليأكل حتى يُضرَب رأسه بالملعقة (السبب، كما ظهر لاحقاً، أن الخادمة السري لانكية التي كان أهل الطفل يسومونها أبشع أنواع العذاب والإهانة، كانت تنتقم منهم عبر ضرب طفلهم عند إطعامه... ما جعله يظنُّ بأن الضرب على الرأس هو جزء من عملية تناول الطعام!).

أو قصَّة تلك الأم السعودية التي أكَّد لها الطبيب أن جنينها يُعاني نقصاً في نموِّه وأنه سيولد معوَّقاً لا محالة، لكنها مع ذلك رفضت الإجهاض «راضيةً بحكم الله» (حين سأصل الولايات المتحدة الأميركية في أواخر العام 2008، أي في خضمِّ الانتخابات الرئاسية، سأكتشف بأن سارة بيلين، نائبة المرشح الجمهوري جون ماكين، فعلت ذلك أيضاً! وابتداءً من تلك اللحظة سأبدأ بترتيب المفارقات في رأسي لتصويب فكرتي عن أميركا والغرب وعن تفاعل التكنولوجيا والخرافة).

بل إني أيضاً بفضل تغطيةٍ وردت المجلَّة من مراسلها في فرنسا، اكتشفتُ بأنَّ الجملة التي ما فتئ الإعلام السوري يُروِّج لها في تلفزيونه وصحفه لعالم الآثار الفرنسي أندريه بارو: «لكلِّ إنسان وطنان: وطنه الأصلي وسوريا»، هي جملة مسروقة!

ففي خضمِّ انخراط المراسل في مديح فرنسا وعروض الموضة

فيها، استشهد بجملةٍ قال إنها لتوماس جيفرسون، الرئيس الأميركي الثالث للولايات المتحدة: «لكل إنسان وطنان: وطنه الأصلي وفرنسا»!

وحين فتَّشتُ وتقصَّيتُ عن الأمر تأكَّدتُ فعلاً بأن جيفرسون قالها بحَرفيَّتها عن فرنسا حين عمل سفيراً لديها في ثمانينيات القرن الثامن عشر. يومها تذكَّرتُ المقالة الساخرة التي كتبتُها في بداياتي عن هذه الجملة، حيث قلتُ إن النظام الدكتاتوري بممارساته زادَ على جملة أندريه بارو حتى أصبحت كالآتي: «لكل إنسان وطنان: وطنه الأصلي وسوريا... باستثناء السوريين الذين لم يعد لديهم أيّ وطن».

كانت مثل هذه الطرائف تُخفِّف عنِّي روتين العمل اليومي في التصحيح المملّ وإعادة صوغ الجمل واستخراج العناوين. وفي تلك الأيام بدأتُ كتابة روايةٍ، لم أُكملها إلى اليوم، بعنوان «المصحِّح». أروي فيها حكاية كاتبٍ شابٍّ يعمل في مهنة التصحيح اللغوي، ومن شدَّة وفائه وإتقانه لهذا العمل صار خطُّه حين يُصحِّح يتحوَّل بشكل تلقائي إلى خطٍّ شبيهٍ بالخط الذي على الورقة، حتى أن الناظر يظنُّ بأن الكاتب الأصلي استخدم قلمَيْن في الكتابة: الأسود والأحمر. لكن المسألة تحوَّلت إلى أزمةٍ حين تجاوزت إطار التصحيح

في اللغة، لتصبح تصحيحاً في الحياة لكلِّ ما يظنُّه هذا المصحِّح خطأً في الشارع والبيت والمقهى... حتى باتت حالته لا تُطاق بالنسبة إلى عائلته وأصدقائه.

وكدتُ أن أكون أنا ذلك المصحِّح المهووس، وكادت قصَّتي أن تكون قصَّته. فهَوَسي في تصحيح «الأخطاء» مِنْ حولي جعلني أقع في سوء تفاهم دائم مع الآخرين. وأثناء عملي في المجلَّة النسائية حصلت معي مشاكل عديدة بسبب ذلك. لكن الأغرب أنَّ هوس التصحيح لديَّ امتدَّ إلى الماضي أيضاً، ولا أقصد هنا مواقفي السابقة التي أُعيد النظر فيها باستمرار، بل ذاكرتي في الطفولة. والعجيب أن هذا «التصحيح» حدث في النوم، و«صحَّحَ» حادثةً بعيدةً كنتُ شاهداً عليها وأنا لا أتجاوز السادسة من عمري، بطلها طفل اسمه أيهم كان معي في الصف الأول من المرحلة الابتدائية، وقد خلَّدته ذاكرتي بسبب تلك الحادثة التي ملخَّصها أنه أهدى معلمتنا، في عيد المعلِّم، كلسوناً أحمر! وقد ضحكنا كثيراً، أنا ورفاقي في الصف، على غباء أيهم وقلَّة لباقة أهله في إرسال مثل هذه الهدية.

فذات ليلةٍ نهضتُ من فراشي مستغرباً وأنا أقول في نفسي: كيف لم أفكِّر في هذا! فقد حلمتُ بحادثةٍ تعود إلى أكثر من عشرين عاماً مضى، حين قامت معلِّمتنا بالكشف على سراويلنا الداخلية

لأنَّ بعض الأطفال في المدرسة لا يرتدونها، وكان أيهم منهم، لذلك قامت بمعاقبته بطريقة غريبة حيث أمرته بخلع بنطلونه والوقوف أمامها عارياً بعدما أمرتنا بإغماض أعيننا! ولذلك قام أهل أيهم بإهدائها كلسوناً أحمرَ في عيد المعلِّم!

في تلك الفترة، أواخر العام 2007، ضربني حنينٌ مستجدٌّ إلى طفولتي في حيٍّ غويران الفقير في مدينة الـحَسَكة، والذي يوجد فيه السجن الذي يجمع أخطر مجرمي الجزيرة السورية. حنين إلى «مدرسة سليمان العلو» التي تعلَّمتُ فيها حتى الصف الخامس قبل مغادرة الحسكة نهائياً إلى مدينة الشدَّادي. حنين إلى «الخَرَابة» التي كنت ألعب فيها مع «العِجْيان» بين القمامة والعقارب الصفراء الصغيرة. حنين إلى ريمة حازم، قريتي في السويداء. حنين إلى كَرْم جدِّي. حنين إلى كلِّ شارع مشيتُ فيه، وكلِّ حارة لعبتُ مع أطفالها.

وحين عرفتُ بوجود «غوغل إيرث» كان أوَّل ما فعلته هو البحث عن موقع كَرْم جدِّي في ريمة حازم، وعن موقع مدرستي في حيِّ غويران، ثمَّ موقع نهر الخابور الذي تركتْ مياهه تذكاراً في جسدي، هو عبارة عن حصاةٍ في كليتي اليسرى.

والحقيقة أنَّ مثل هذا الشعور بالحنين العارم لم يُراودني من قبل طالما أنني أعيش في بيروت التي لا تبعد سوى ساعتَيْن في السيَّارة عن

سوريا. لكنه راح يتلبَّسني شيئاً فشيئاً بعد الجلسات المطوَّلة في مبنى «المفوَّضية السامية لشؤون اللاجئين»، حيث شعرتُ بجدِّية المسألة، وبأنني على وشك قبولي كلاجئ، وبالتالي على وشك السفر إلى بلد اللجوء ومنعي من العودة إلى لبنان حتَّى حصولي على جنسية جديدة، أي بعد أن أكفَّ عن كوني «المواطن السوري ماهر شرف الدين» لأصبح «المواطن الهولندي ماهر شرف الدين» (باعتبار أن طلبي كان في الأصل هو اللجوء إلى هولندا عملاً بنصيحة أحد الأصدقاء). وهكذا امَّحتْ شخصية «المصحِّح» رويداً رويداً، لتحلَّ محلَّها شخصية «التائه» الذي أقسم على أن يمشيَ ذات يوم حافياً في شوارع غويران وريمة حازم ليُعفِّر قدمَيه بترابهما كما كان يفعل في طفولته، بعد أن يُعفِّر به أنوفَ الذين حرموه من بلاده كل تلك السنوات.

***

لكني في ذلك الصباح وجدتُ -بين تلك المواد المكدَّسة أمامي للتصحيح- «صيداً ثميناً» هو عبارة عن حوار مع المطربة اللبنانية نجوى كرم، سيكون غلافَ العدد، وقد طلبتْ إجراءَه بهدف تلميع صورتها في لبنان بعد الانتقادات الكثيرة التي وُجِّهتْ إليها بسبب غنائها لبشار الأسد، متجاهلةً حملة الاغتيالات والتفجيرات في

لبنان التي كان المتهم الأوَّل فيها نظام الأسد.

كانت فرصةً لي -أنا السوريّ الهارب في لبنان- من أجل الانتقام من تلك الزمرة من المنافقين الذين يتمُّ تكريمهم في بلدي، في حين يتمُّ حرماني من زيارته.

قرأتُ الحوار بتأنٍّ، وصحَّحتُه دون إجراء أيِّ تغيير باستثناء الأخطاء الإملائية والنحوية. وبكلِّ خبثٍ لمْ أضع العنوانَين، الفرعيّ والرئيسيّ، بعدما علمتُ بأن نجوى كرم اشترطتْ قراءة الحوار قبل النشر.

أرسلنا إليها الحوار، فقرأتْهُ ووافقتْ عليه.

لمْ أحترْ كثيراً في اختيار العنوان الرئيسيِّ للحوار: «نجوى كرم: أحب أن أكون حكيمة كالأفعى»!

وهذه الجملة قالتها نجوى ببراءةٍ في حوارها وباللهجة المحكيَّة، ولم يكن يخطر في بالها أنه من الممكن انتزاعها من سياقها العادي ووضعها عنواناً رئيسياً بهذا الشكل الكارثيِّ!

أما العنوان الفرعي فكان أشدَّ لؤماً، وقد جعلها تفقد صوابها فتطرد مدير أعمالها، وتتهم الصحافية التي أجرت الحوار بالتآمر عليها.

فمن بين الأسئلة التي أجابت عنها نجوى كرم بالنفي، ثمَّة

سؤالٌ عمَّا إذا كان في نيَّتها الغناء للأطفال بعدما غنَّت للأم والأب.

فجاء العنوان كالآتي: «لا ترى نفسها في أغنيات الأطفال بعدما غنَّت للأم والأب و... الأسد»!

«الصعود» إلى المانشيت

كلُّ شيءٍ في لبنان يمكن أن يُفضيَ إلى السياسة، حتى الفن والغناء والمجلَّات النسائية يمكن أن تكون باباً لفتح حديثٍ سياسيٍّ. وفي ذلك الوقت كانت الاغتيالات ما تزال في أوجها، والجميع يتَّهم الجميع. لكنَّ الواضح الوحيد في كلِّ تلك المتاهة -لمن يريد أن يرى بنزاهةٍ- أن النظام السوري دكتاتوريٌّ وقاتلٌ تجب معارضته.

وشخصياً، كنتُ قد حسمتُ أمري بمعارضة هذا النظام في بلدي والكتابة ضدَّه فور تعلُّمي أبجدية الكتابة في الصحافة. وبالطبع كانت جريدة «النهار» هي الملجأ شبه الوحيد للكتَّاب السوريين المعارضين لنشر مقالاتهم آنذاك. أو على وجه التحديد «الملحق الثقافي» وصفحة الرأي. فقد كانا أشبه بـ«دكَّانَين» جميلَين للانفتاح نابتَين على أطراف «المول» الانعزالي الكبير الذي هو جريدة «النهار». لذلك كنَّا ككتَّاب سوريين معارضين مرتاحي الضمير تماماً في مسألة النشر فيهما. وطوال سنوات كتابتي في «الملحق الثقافي» لم أشعر إلا بجوِّ الألفة الأُسَرية، وبالاستقلالية التامَّة التي حرصتُ أشدَّ الحرص

على صونها. حتى أنني في عدد «الملحق الثقافي» الخاص باغتيال جبران تويني، صاحب جريدة «النهار»، كتبتُ مقالة صغيرة عمومية عن معنى الحرِّية بعيداً عن المدائح المبتذلة في مثل هذه المناسبات. وهذا الأمر طبَّقته منذ البداية: لا لمديح الساسة حتى ولو على سبيل الرثاء.

كنتُ أقول للأصدقاء بأن وظيفتنا ككتَّاب -في زمن الاغتيالات السياسية- هجاء الاغتيال، وليس مديح القتلى. خصوصاً أنه بات لهذه المدائح أثمان بالدولار. فقد تحوَّل الرئيس المغدور رفيق الحريري إلى قدِّيسٍ، انتقادُ فساده السياسي من الكبائر ونوع من الخيانة العظمى!

لقد أيَّدتُ انتفاضة **14** آذار اللبنانية، بل وشاركت فيها، انطلاقاً من كونها لحظة تحرُّر شعبية. لحظة توق إلى الحرِّية. لا أكثر ولا أقلّ.

الوحيد الذي كتبتُ عنه، من بين جميع مَن اغتيلوا في لبنان، هو سمير قصير، صديقي وجاري في الطابق الرابع من مبنى جريدة «النهار»، والذي كان من أوائل الذين شجَّعوني وأبدوا تقديرهم لموهبتي. وقد كنتُ أتعامل معه كمعارض سوري صرف، وهو على كلِّ حالٍ من أصل سوري. كتب سمير عن سوريا بقدر ما كتب عن لبنان. كان مؤمناً بمقولة «وحدة المسار والمصير» بين سوريا ولبنان،

إنما بشكل أعمق من الشكل السياسي الاستتباعي الذي فرضه حافظ الأسد، وبعيداً عن الابتذال الذي مارسه بعض الانتهازيين في الإعلامَيْن السوري واللبناني. وآخر حديث دار بيننا، قبل أيام قليلة من اغتياله، كان حول مقالة لي حاولتُ أن أشرح فيها علاقة السوري العادي بلبنان، وقد لفتَهُ قولي فيها إنَّ السوريين يحبُّون لبنان ويكرهون اللبنانيين.

كتبتُ عن سمير بعاطفة مَنْ فقدَ عزيزاً بعدما بكيتُ عليه بحرقةٍ مع بقية الأصدقاء في «الملحق الثقافي». وأذكر أن أحد هؤلاء الأصدقاء، من هول الصدمة بخبر اغتيال سمير، اصطدمَ بالباب الزجاجي للجريدة فكُسِرَ أنفه. وكم تشاءمتُ من تلك الحادثة، وأحسستُ أنها ترمز إلى كسر أنوفنا جميعاً.

ومنذ ذلك اليوم الذي بتنا نشعر فيه، ككتَّابٍ، بأننا مستهدفون كالسياسيين، خصوصاً أنَّ حصَّة الصحافيين من بين سبعة اغتيالات كانت ثلاثة، بدأتُ أبحث عمَّن يُساعدني في الحصول على جواز سفر من أيِّ بلد كان، ولو بالمال، للخروج من لبنان... وبقيتُ كذلك حتى نصحني أحد الأصدقاء بتقديم طلب إلى «المفوَّضية السامية لشؤون اللاجئين».

كانت تلك الأيامُ أيامَ اغتيال وارتياب من كلِّ شيء. بتُّ وكثير

من الأصدقاء المناهضين لنظام الأسد لا نمشي بالقرب من أي سيَّارة مركونة خوفاً من أن تكون مفخَّخةً. سائق سيَّارة أجرة تأفَّف من غلاء المعيشة بالقول: «مش عارفين كيف بدنا نعيش»، صحَّحتُ له ممازحاً: «لا يا عمّ، مش عارفين كيف بدنا نموت».

وقد فاقمَ من مشكلتي الشخصية حصول ثلاثة أمور نظرتُ إليها كإشارات جدِّية على خطر يتهدَّد حياتي:

الأول، اتصالات مجهولة من سوريا كانت تصلني على موبايلي وتهدِّدني بعبارات مبهمة بعد كلِّ مقال سياسيّ حادّ أكتبه. فقد قالوا لي (مَن هم؟) ذات مرَّة: «ألا تعلم بأنَّ الدخَّان مضرّ بالصحة».

الثاني، اعتراض أحد الشبَّان السوريين طريقي في زاروب متفرِّع عن شارع السادات في منطقة الحمرا ببيروت، وتهديدي بالويل إذا فتحتُ فمي مرَّة أخرى ضدَّ «الدكتور بشار». وحين سألتُ هذا الشاب عن اسمه وما هي صفته كي يُهدِّدني، أجابني: «اسمي ماهر شرف الدين»! ثم تركني ودخل في أحد الأحياء. وهذه الحادثة سبَّبت لي قلقاً حقيقياً لأنه كان في وسع هذا الشابّ أن يطعنني بسكِّين ويهرب، كما أنَّ معرفته باسمي لا تدع مجالاً للشكّ في أنه عنصر مخابرات مولج بمراقبتي. وبعد هذه الحادثة بتُّ لا أمشي إلا في الشوارع الرئيسية، متجنِّباً بشكلٍ كلِّي السير في أي

زاروب، خصوصاً في الليل.

الثالث، سائق سيَّارة أجرة قال إنَّ اسمه «حسُّون» كان يظهر لي في أمكنة مختلفة بشكل يومي ويعرض خدماته لتوصيلي! في البداية كنتُ أُفسِّر ذلك بالصدفة المحضة، مع أنه كان يظهر لي على باب الجريدة مرَّةً، وعلى بوَّابة البناية التي أسكن فيها مرَّةً ثانيةً، وفي مدخل حيٍّ كنتُ أزوره مرَّةً ثالثةً! وقد سألتُه عن الخطّ الذي يلتزم به في عمله كي أفهم السرَّ في ظهوره في كلِّ تلك الأماكن معاً، فقال لي: «خطِّي كل بيروت، بلحق رزقي وين ما كان»!

لكن ذات مرَّة، وفي منطقة غير مضاءة، قُطعتْ بنا السيَّارة، أنا وزوجتي، وما إن نزلنا منها حتى كان «حسُّون» هذا يُنادينا كي نصعد معه! إذْ ذاك فكَّرتُ أنا وزوجتي بالفكرة نفسها: هذا الشخص كان يلاحقنا!

وعلى الفور قامت زوجتي بحركةٍ ذكيةٍ، إذ ذهبت إلى مؤخِّرة سيَّارته وعلى مرأى منه سجَّلتْ رقم السيَّارة على دفتر صغير وضعته في حقيبتها أمامه، قاصدةً أن تُريه ما فعلتْ.

وعوض أن يغضب من هذه الحركة، ارتبكَ وصمتَ. وحين عدَّلتُ جلستي إلى جانبه في السيَّارة لتصبح بشكل مواجه له، فتح فمه وسألني عن سبب تسجيل رقم سيَّارته، فأخبرته بكلِّ ما يدور

في ذهني، وعن أنَّ الأجواء أجواء اغتيالات صحافيين وسياسيين، مذكِّراً إيَّاه بالأماكن المختلفة التي ظهر لي فيها بشكلٍ يوميٍّ، وقلتُ له إن المصادفة لا يمكن أن تكون «عنيدة» إلى هذه الدرجة!

أقسمَ لي «حسُّون» إنه سائق عادي لا علاقة له بأيِّ جهة، وإنه «على باب الله». وكنتُ أنتظر منه أن يُبرز لي هُويَّته أو شهادة سَوْقه لطمأنتي، لكنه لم يفعل، وأنا من جهتي لم أطلب منه إبراز شيء.

ومنذ ذلك اليوم لم أعد أراه مطلقاً، ولم يظهر لي في أي شارع. والحقيقة أنني أفكِّر اليوم بأنني بالغتُ في حسِّي الأمنيِّ آنذاك، وأنني ربما ظلمتُ ذلك الشابّ، وأن الصُّدَف بطبيعتها تحبُّ اللعبَ على الأوتار النفسية للإنسان.

بعد تلك الحادثة فكَّرتُ بإصدار بيانٍ صحافيٍّ أُحمِّل فيه النظام السوري مسألة سلامتي الشخصية. لكنَّ نصائح الأصدقاء أقنعتني بأنَّ التصعيد ليس من مصلحة شخصٍ لا يملك أيَّ حماية ويعيش في حيٍّ شعبيٍّ ويمكن لأيِّ سيَّارة عابرة أن تدهسه وهو يقطع الطريق.

وعوض البيان، كتبتُ سلسلةَ مقالاتٍ عن الصحافيين والكتَّاب الذين تمَّت تصفيتهم لموقفهم السياسي، من محمود المحمصاني، أول شهداء الصحافة اللبنانية، الذي أعدمته الدولة العثمانية مع شقيقه محمد، وكان كلّ منهما يُلحُّ على أن يُشنَق قبل الآخر كي لا يراه

يموت أمامه... إلى سمير قصير الذي لم يُعطَ مثل هذه الفرصة لطلب أيِّ شيء. مروراً بكامل مروَّة الذي قُتل في مكتبه، ورياض طه في سيَّارته، وحسين مروَّة في سريره، وسليم اللوزي الذي ذُوِّبت يده بالأسيد وأُلقيت جثَّته بين الأحراج، وسهيل طويلة الذي أُلقيت جثَّته في مكبِّ نفايات.

وفي مقال بعنوان «في الطريق إلى المانشيت» كتبته سنة 2006، تحدَّثتُ عن الطالع السيء في تحوُّلِ ناقلِ الخبر (الصحافي) إلى مادَّته. في تحوُّلِ كاتبِ الخبر إلى بطله. في أن يقفز اسم الصحافي من الصفحات الداخلية للجريدة إلى الصفحة الأولى. في أن تقذف قنبلةٌ صغيرةٌ اسمَ صحافي من رصيف المقال الخفيض إلى أبراج المانشيت المرعبة.

كتبتُ بأننا لا نريد لأسمائنا أن تكبر أكثر من حجمها الطبيعيّ. لا نريد الصعود إلى المانشيت على سلَّم من ديناميت. فحين يغدو الصحافي نفسه مادةَ الصحافة، فإنها لا تبقى صحافة. استذكرتُ أكثر من مرَّة ما كتبه الصحافي ميشال أبو جودة سنة 1966 عن أن «الصحافي القتيل لو أُعيد إلى الحياة لكتب مقالاً ضدَّ قاتله». والحقيقة أنَّ مشكلة الصحافي تكمن في أنه يتوهَّم بأنَّ جميع الذين يقرأونه هم من القرَّاء. لكننا في زمن القتل ذاك لم يعد لدينا هذا

الوهم أبداً، وبتنا نعرف أنَّ بين مَنْ يقرأنا قَتَلة لا علاقة لهم بالقراءة.

وفي مقابل أجواء الخوف والقلق تلك، سادت أجواء النفاق والعنصرية المستجدَّة التي أشاعها بعض المثقَّفين اللبنانيين من راكبي موجة الثورة بعد اغتيال رفيق الحريري، والتي وضعتني -ككاتبٍ كسوريٍّ- أمام أزمةِ سؤالٍ عن صوابية ما أقوم به.

فقد تحوَّلت بعض الصحف اللبنانية إلى نُسَخ طبق الأصل عن الصحافة السورية في شموليتها وابتذالها، ولم يكًن من فارق بينها سوى حِرَفيَّة الطباعة اللبنانية. وأنا لا أتحدَّث عن كتَّاب السياسة، بل عن بعض المثقَّفين والأدباء والشعراء الذين بلغت الانتهازية بأحدهم حدَّ أن يكتب عن الحريري روايةً ومسرحيةً وديوانَي شعر احتويا -إضافة إلى القصائد التي تُؤلِّهه- قصائدَ أخرى في مديح زوجته وابنته وبقية العائلة! وثمن ذلك كلِّه وظيفةٌ وبعض المال!

لقد بلغ الابتذال آنذاك مستويات قياسية، حتى أنَّ بعض هؤلاء راح يُطالبنا بمعاملته كبطل، متناسياً أنه كان قبل أشهر قليلة يَسْتهول تركيزنا في كتابتنا على دكتاتورية النظام السوري!

والسؤال صار بالنسبة إليَّ على الشكل الآتي: ما درجة الأخلاقية في عملي بصحافةٍ ما جئتُ إليها إلا هرباً من صحافة باتت تُشبهها الآن؟

لقد تبيَّن لي، من تجربة انتفاضة 14 آذار، بأنَّ الثورة يمكن أن تمتلك دكتاتورية شبيهة بدكتاتورية الأنظمة التي تحاربها. لا بل إنَّ دكتاتورية الثورة لها وقْعٌ في النفس أشدّ وطأةً حين تضطرُّ أنت، كمشاركٍ فيها، إلى الحديث عن طهرانيتها. الجميع يتناتشون «النصر»، ومَن كان في المقدِّمة مخاطراً بمكتسباته وأمنه لمعارضة الدكتاتورية، يصبح في طرفة عين في الصفوف الخلفية أمام تقدُّم جيوش الانتهازيين.

وللأسف تبنَّى بعض الإعلام اللبناني لغةً عنصريةً ضدَّ السوريين كشعب، وضدَّ السوري كإنسان. آنذاك كتبتُ مقالاً أهاجم فيه القائمين على برنامج تلفزيونيّ ساخر صار يُخصِّص معظم حلقاته للاستهزاء باللهجة السورية (الشامية تحديداً)، مُصنِّفاً العامل السوري في لبنان ضمن خانتَين لا ثالث لهما: فإمَّا هو بائع كعك يسرق فرصة عمل اللبناني، وإمَّا هو عنصر مخابرات يسرق طمأنينة اللبناني.

وفي مقابل هؤلاء كان ثمَّة فئة من المثقَّفين اللبنانيين الشجعان الذين رفضوا عروض العنصرية، كما رفضوا مسرحيات الطوائف الإعلامية عن احتضان الجامع للكنيسة، ليس فقط لزيفها وآنيَّتها، بل لأنها ببساطة تطرد المثقَّف العلماني المتنوِّر من ساحة الثورة. وما

حدث بعد ذلك من سعار طائفي إسلامي – مسيحي، وإسلامي – إسلامي، أكَّد صحَّة نظر هؤلاء.

حين سألتني موظَّفة المفوَّضية عن سبب مشاركتي في انتفاضة 14 آذار لـ«إخراج السوريين من لبنان»، تجاوزتُ فكرة أن أطلب منها التصحيح والقول «إخراج النظام السوري» والتفريق بين الشعب والنظام، وقلتُ لها إنَّ اللحظات الرومنسية في حياة الشعوب لا تقلّ خفَّةً عن اللحظات الرومنسية في حياة الأفراد.

ومما استطعتُ استنتاجه أثناء تلك الجلسة أنَّ هذه الموظفة، التي لا يُسمح لها إطلاقاً بإعلان ميولها السياسية أثناء عملها، كانت على الأقلّ متعاطفةً مع انتفاضة 14 آذار. لذلك كانت، على ما أظنُّ، تمزج أسئلتها الشخصية بالأسئلة «الرسمية»، ولذلك تركت لي المجال مفتوحاً للخروج على موضوعي الشخصيّ لأشرح لها أسباب فشل انتفاضة 14 آذار. ومما قلتُه لها آنذاك إنَّ 14 آذار كانت بمثابة مرحلة خطوبة، والخطوبة في بلادنا معناها الكثير من النفاق والتمثيل، لذلك سقطتْ في استحقاق الزواج. قلتُ لها إنَّ الثورة مثلنا تماماً تمرُّ في مرحلة خطوبة قبل الزواج، والثورات الحقَّة هي التي لا تُزيِّف نفسها في تلك المرحلة.

وجود هؤلاء المثقَّفين اللبنانيين الشجعان خفَّف عليَّ من حدَّة

الإجابة عن سؤال أخلاقية عملي في مثل هذه الصحافة... حتى جاء عملي في مجال الصحافة الفنِّية فأنقذني من مستنقع «الثورة» الذي كثرتْ تماسيحه وغارت مياهه. وبعدما كنت مضطرًّاً إلى الذهاب بشكلٍ يوميٍّ إلى الجريدة، صرتُ أرسل مقالتي بالبريد الالكتروني، مستريحاً من رؤية بعض الوجوه العنصرية، مستبدلاً إيَّاها بوجوه فنَّانات جميلات أمثال نجوى كرم التي انتهيتُ للتوِّ من صنع «المقلب» اللئيم بها.

سيَّارةٌ طائرةٌ
وأُخرى عالقة في الوحل

في هذه الجلسة في مبنى المفوَّضية «استجوبوا» زوجتي قبلي. سألوها أسئلةً بعضها مطابق للأسئلة التي حضَّروها لي، وكالعادة، ليكتشفوا نسبة الصدق في ما نقوله.

والحقيقة أني مع توالي الجلسات بتُّ أقلَّ حساسية تجاه هذه المسألة، خصوصاً أنني اقتنعتُ بضرورة ما يقومون به وأنا أشاهد الطوابير الطويلة من طالبي اللجوء.

لم تعد الأسئلة المبطَّنة و«الملغومة» هي ما يُثيرني في تلك الجلسات، بل على العكس تماماً، بات ما يُثيرني هو تلك الأسئلة البسيطة الهامشية التي لا قيمة لها في تحديد «مستقبلي»، والتي كنتُ أشعر أنها تُرَشُّ لا على التعيين بين الأسئلة المهمَّة بغرض التمويه. فقد كان من مزايا تلك الأسئلة البسيطة أنها تستحضر مراحلَ بعيدةً تركتها الذاكرةُ للغبار والنسيان.

ومن بين تلك الأسئلة سؤال عن أسماء المدارس التي تعلَّمتُ

فيها، وقد تذكَّرتُها جميعاً: مدرسة الشهيد سليمان العَلو (الابتدائية)، مدرسة رائد الفضاء محمد فارس (الإعدادية)، مدرسة التحرير (الثانوية).

وكم تمنَّيتُ لو أن الموظفة الجديدة، التي ألتقيها للمرَّة الأولى، استطردتْ في سؤالي عن تلك المرحلة المهمَّة من عمري، لكنها للأسف لم تفعل. وبالطبع لو أنها فعلت فهي -بحكم عملها- لن تسألني إلا عن الجانب المظلم والعنيف. فما الذي كنتُ سأحكيه لها لو أنها سألتني حقًّاً؟

ربما كنتُ سأختار لكلِّ مدرسةٍ من تلك المدارس الثلاث حكايةً أحلُّ بها عُقدةً من عُقَد تلك السيرة التي بَطَلُها العنف، والتي سمحت لشابٍّ مثلي -ما زال في مطلع حياته- أنْ يدَّعيَ سيرةً ليرويَها.

مدرسة الشهيد سليمان العلو: كنتُ في السابعة من عمري عندما اشتركتُ في دورة مدرسية للرسم أقامتها «منظمة طلائع البعث»، وهي منظمة أيديولوجية خاصَّة بالأطفال أسَّسها حافظ الأسد سنة 1974 لتحضير جميع أطفال سوريا لدخول «حزب البعث»، وأذكر أننا كنَّا قبل (وبعد) أداء أيِّ نشاط مدرسي،

نُردِّد عبارة «مستعداً دائماً» ردَّاً على قول المشرف أو المعلِّم لنا: «رفيقي الطليعي، كن مستعداً دائماً لبناء المجتمع العربي الاشتراكي الموحَّد والدفاع عنه»... من دون أن نفهم -نحن الأطفال آنذاك- كلمةً واحدةً من هذه الجملة العجيبة التي ترفض ذاكرتي إلى اليوم نسيانها.

وفي الحصَّة الأولى من الدورة التدريبية تلك، وبعدما عدَّد لنا المعلِّم (الغاضب بلا سبب نعرفه) الألوانَ الأساسية الثلاثة في الرسم، طلبَ من كلٍّ واحد منَّا أن يرسم سيَّارة. وقد كان ذلك مثيراً لنا نحن الأطفال الفقراء الذين لا نعرف من وسائط النقل إلا الباصات المزدحمة.

ولم تكد تمضي بضع دقائق على شروعنا في الرسم حتى جنَّ جنون الأستاذ على صديقتي رندة التي تجلس بجانبي لأنها رسمت السيَّارة وهي تطير. ضربها على وجهها بكلِّ قوَّته، ثمَّ طردها من الصف وهو يصيح: «السيَّارة تطير يا حمارة»!

ومثل جميع الأطفال الذين كانوا معي في الصف، شعرتُ بالرعب. وبسبب ذلك رحتُ أُغمِّق في لون الأرض تحت السيَّارة، وأُلصقها أكثر فأكثر بالدواليب حتى لا يظن الأستاذ أنها تطير. وبقيتُ على هذه الحال أُغمِّق وأُغمِّق في لون الأرض حتى تآكلَ

القسم السفليّ من الدواليب. فإذا بالأستاذ يصرخ بي غاضباً: «أنت أجحش منها! هي تُطيِّر السيَّارة في الهواء، وأنت تُغرِّز دواليبها في الوحل»! ثمَّ انهال عليَّ بالضرب وطردني أيضاً!

مدرسة رائد الفضاء محمد فارس: كانت لهجة الأستاذ حسن الساحلية ما تزال غريبةً علينا؛ نحن الصِّبية الذين لبسنا للتوّ البدلة العسكرية المفروضة كلباسٍ رسميٍّ على طلاب المرحلتَيْن الإعدادية والثانوية في سوريا، وانتسبنا حُكماً إلى «اتحاد شبيبة الثورة» وهي المنظمة التي تلي منظمة «طلائع البعث» والتي على طلاب الإعدادية والثانوية الانخراط فيها بشكل إلزامي، وقد أسَّسها أيضاً حافظ الأسد سنة 1968 وأصدر مرسومها التشريعي سنة 1970.

ومنذ البداية، أفلح الأستاذ حسن في بثِّ الرعب في قلوبنا، حيث كان يحمل في يده -وبشكل دائم- قضيب رمَّان يظلُّ يُلوِّح به طوال الحصَّة: في الهواء عندما يكون رائقاً يشرح الدرس، وعلى أجسادنا ورؤوسنا عندما يغضب وبلا أي رحمة.

وقد خَبِرنا في الأستاذ حسن عادةً غريبةً، صارت مرعبة بالنسبة إلينا مع مرور الوقت، وهي سؤاله الطالب -قبل أن ينهال عليه

ضرباً بقضيب الرمَّان- عن مهنة والده! فإذا قال الطالب إنَّ أباه فلَّاح، يقول له الأستاذ حسن: «أبوك يفلح الأرض ويجري وراء الدواب في الشمس وأنت تتلهَّى عن دروسك»! ثمَّ ينهال عليه بالضرب حتى يجعله يقع أرضاً طالباً الرحمة. وإذا قال له إنَّ أباه يعمل حداداً، فيكون الردُّ: «أبوك تتخلخل مفاصله وهو يضرب بالمطرقة صباح مساء وأنت لا تكتب واجباتك»! ثمَّ يضربه بالقضيب بشكلٍ هستيريٍّ... وهكذا.

وذات يوم فاجأني الأستاذ حسن، وأنا شاردٌ في الحصَّة، فطلب مني أن أُعيد الفكرة الأخيرة التي شرحها للتوِّ. وحين لم أعرف، سألني سؤاله المرعب: «ماذا يعمل أبوك»؟

ولمْ أفكِّر في الجواب كثيراً، وأنا أقول له وسط ذهول زملائي من وقاحتي في الكذب: «أنا يتيم، ليس لي أب»!

وللحظة شعرتُ أني أربكته بجوابي غير المتوقَّع، فصمتَ ناظراً إلى الأرض وكأنما قد تعاطف معي، ثمَّ فجأةً أعاد تركيز نظره عليَّ وسألني: «ومَنْ يصرف عليك إذاً»؟ فقلت له: «أخي الكبير» على الرغم من أنني أكبر أخوتي. فسألني مجدَّداً: «وماذا يعمل أخوك الكبير؟» فأجبته: «كهربجي» (والحقيقة أنَّ أبي هو من يعمل كهربجياً).

«أخوك الكبير يُعرِّض نفسه لخطر الموت صعقاً بالكهرباء وأنت تشرد في الصف»! وانهال عليَّ بقضيب الرمَّان الذي أصدر صوتاً، وهو يشقُّ الهواء، يُضاهي الصوت الذي أصدرته حنجرتي وأنا أتلقَّى الضربات.

مدرسة التحرير: كنتُ سعيداً بأنني خلعتُ الشارات الصفراء على الكتفَين التي تمثِّل المرحلة الإعدادية، ولبستُ الشارات الحمراء التي تمثِّل المرحلة الثانوية، وهي المرحلة الأخيرة قبل ولوج الجامعة. كنتُ قد بلغت الخامسة عشرة من عمري يومئذٍ، وأتقنت بشكل جيِّد كتابة الشعر العمودي، بل وأتممت كتابة ديوان من 50 صفحة لم يرَ النور طبعاً لأنني مزَّقته بعدما تطوَّر أسلوبي الشعريّ. وقد توطَّدت علاقتي آنذاك بأُستاذ كان اختصاصه الأصليّ اللغة العربية، لكنه كان يُعلِّم عوضاً عنها مادَّة التربية الإسلامية، بسبب خللٍ في توزيع الاختصاصات في المدرسة. وقد أحببته وسعيتُ إلى تقوية علاقتي به لأنه شجَّعني على كتابة الشعر، بل وأشاد بموهبتي أمام الأساتذة. لكنَّ ذلك كلَّه انهارَ بسبب قصيدة صغيرة من بيتَيْن، قرأتُها له، وأذكر أن عنوانها «النيزك» وتقوم على فكرة بسيطة وشائعة لدى الرومنسيين الذين كنت -ككلِّ المبتدئين بالشعر- مغرماً بأسلوبهم،

وقوامها إسباغ الحالة النفسية الذاتية على الظواهر الطبيعية. وبما أنني كنت مفتوناً في ذلك العمر بفكرة الانتحار فقد قمتُ، في قصيدتي تلك، بتحريفِ فعلِ سقوطِ النيزكِ لأجعله انتحاراً من الطابق العاشر للسماء.

كان ردُّ فعل الأستاذ غير متوقَّع بالمرَّة بالنسبة إليَّ، على الرغم من أني على علم تامّ بدرجة تديُّنه. فقد اعتبر -بغضب شديد- تلك القصيدة كفراً واستهزاءً بالله، ثم تلا عليَّ الآية القرآنية التي تشرح حقيقة الشهب والنيازك: «وجعلناها رجوماً للشياطين». ولم أكد أكمل حجَّتي، وهي حجَّة الشعراء التقليدية التي ظننتُها خير دفاع عمَّا فعلته: «على سبيل المجاز...»، حتى قال لي: «المجاز في هذه الحالة حرام»!

***

تختزل هذه القصص الثلاث سيرةَ العنف المركَّب الذي مُورس علينا كطلَّاب، تحت عناوين شتَّى، اجتماعية وأبوية ودينية وسياسية، والذي يُهيِّئ المناخ المثاليّ للقبول بالدكتاتورية، وللقبول بحافظ الأسد رئيساً «إلى الأبد» كما علَّمونا أن نردِّد كلَّ يوم.

هذه الفوضى في إشاعة العنف ضمن عملية التربية، ستتحوَّل في النهاية إلى نظام شامل يستطيع بسهولة تحويل الضحايا إلى حرَّاس

له، تماماً كما تتحوَّل الابنة المقموعة في شبابها إلى أمٍّ قامعةٍ لابنتها في ما بعد.

التقاط السياسة من كتب الأدب

لا أذكر أنِّي حتى سنّ الرابعة عشرة فكَّرتُ جدِّياً بمسألة الولاية الأبدية للرئيس، طالما أنَّ أحداً لا يستنكر ذلك أمامي، وطالما أنِّي ولدتُ وكان حافظ الأسد رئيساً ودخلتُ المدرسة وصورته على دفاتر التلاميذ، وطالما أنَّ وسيلة الإعلام الوحيدة التي كانت متاحةً لي غير التلفزيون السوريّ، في ذلك الزمن، هي التلفزيون العراقيّ الذي كان صورةً طبق الأصل عنه لجهة تقديس الرئيس العراقيّ ومبايعته الأبدية، بل إنَّ الشعارات تكاد تكون ذاتها في البلدَيْن. وليس أقلّ أهمية من هذه الأسباب أنِّي عشتُ طفولتي ومراهقتي في منطقة هامشية في الجزيرة السورية البعيدة عن العاصمة وتردُّداتها.

مع ذلك، لم أكن مراهقاً عديمَ الاهتمامات السياسية، لأنّي كنت قد قرأتُ عشرات الكتب الشعرية بينها الكثير من دواوين الشعراء الفلسطينيين، والتي كان يُزوِّدني بها أحد أصدقاء العائلة ممن اهتمَّ بموهبتي الشعرية. بل إنَّ كلمة «الحرِّية» كانت من أكثر

الكلمات التي ردَّدتُها في أشعاري آنذاك. لكنها لم تكن تعني الحرِّية السياسية، بل كانت تعني «تحرير فلسطين» و«مقارعة الرأسمالية والإمبريالية والصهيونية».

أمَّا السياسة بالمعنى الذي كنت أفهمه آنذاك، والذي كوَّنته مما توافر لي من كتب سياسية حزبية لدى أبي، فقد كنت أمقتُها. وكان جلُّ اهتمامي منصبًّاً على فهم معاني كلماتٍ غريبةٍ، فلسفية وسياسية، قرأتُها متفرِّقةً هنا وهناك في كتب الأدب. فمثلاً قرأتُ كلمة «ماركسية» لأول مرَّة في مقدِّمة ديوان شعر بعنوان «شيوعيون» لأحد الشعراء الفلسطينيين. وقرأتُ كلمة «وجودية» لأول مرَّة في كتابٍ قصصيٍّ اسمه «صانع الحب» لأحد الكتَّاب المصريين. وكنتُ كلَّما قرأتُ مصطلحاً جديداً أحاول جاهداً جمع أكبر قدرٍ من المعلومات عنه. وللأسف يومذاك لم تكن الإنترنت موجودة، ولم يكن أبي يشتري الصحف (الرسمية) وهي بائسة على كلِّ حالٍ، وحتى المكتبة المدرسية كانت لا تحتوي إلَّا على كتب أدبية. لذلك كان عليَّ التقاط السياسة الحقيقية من كتب الأدب التي توافرت لي... والتي لا أذكر أنَّ أيَّاً منها قد تناول موضوع الدكتاتورية.

الحبُّ والمخابرات

ذلك كلُّه تغيَّر بالنسبة إليَّ، وبشكلٍ بدائيٍّ إنما عاصف ورومانسي، بعد تلك «الصفعة» التي وجَّهها لي عنصر «مفرزة أمن الدولة». وبالطبع ما كان لتلك الصفعة أن تُغيِّر شيئاً من حياة المراهق الذي كنتُه، والذي كان يتلقَّى الصفعات من كلِّ حدب وصوب (الأب وأستاذ المدرسة...) لولا أنها جاءت من مكان غير متوقَّع أبداً: الحب!

فذات يوم جاءني مُشرف المدرسة مرتبكاً ليقول لي: «أمن الدولة معاوزينك»!

كانت تلك المرَّة الأولى التي تطلبني فيها «المخابرات» أو «مفرزة أمن الدولة» التي كان اسمها يُثير الهلع في قلوبنا (لم يكن ثمَّة أي فرق لدينا بين أمن الدولة أو الأمن السياسي أو الأمن العسكري أو غير ذلك من الأجهزة الأمنية لأننا كنَّا نعتبرهم جميعاً «مخابرات» طالما أنهم يمارسون الوظيفة ذاتها: إرهاب الناس).

وعلى الفور -وأنا في طريقي إلى غرفة المشرف حيث ينتظرني

رجل المخابرات- رحتُ أستعيد الأحاديث التي دارت بيني وبين أصدقائي خلال اليومَين الأخيرَين، وتحديداً النكات التي أطلقناها وإذا ما كان بينها نكات «سياسية». شككتُ بجميع أصدقائي وندمتُ لأنني «أَمَّنتُ» لهم. لكنَّ ذلك كلَّه تبخَّر مع رذاذ لعاب رجل المخابرات المتطاير على وجهي وهو يُشهر أمامي البطاقة الجميلة التي دسستُها خلسةً بين دفاتر إحدى زميلاتي!

ففي ذلك اليوم فكَّرتُ بالقيام بحركةٍ لطيفةٍ تجاه الفتاة التي كنتُ معجباً بها في المدرسة، والتي كنتُ أحسُّ من نظراتها إليَّ بأنها تبادلني الشعور ذاته، فكتبتُ بيتَيْن من الشعر باسمها على بطاقةٍ خاصَّةٍ، ثمَّ دسستُها، خلسةً، بين دفاترها أثناء الفرصة بين حصَّتَيْن.

ولم يخطر في بالي أنَّ الحب يمكن أن تتدخَّل فيه «مفرزة أمن الدولة»! لم يخطر في بالي أبداً أنَّ فتاةً بكلِّ تلك الرقَّة يمكن أن تستقويَ عليَّ بأقربائها في المخابرات!

وهكذا انقلبتْ قصَّة «حبِّي» إلى حكاية كوميدية على ألسنة أصدقائي: «بيت شعر آخر وتصبح سجيناً سياسياً»، «سيكون مأذونكما المساعد جميل»... إلى آخر تلك النكات التي أطلقها زملاء المدرسة.

كانت تلك «الصفعة» الأكثر قسوة من بين مئات الصفعات

التي كنتُ قد تلقَّيتها حتى بلغتُ ذلك العمر، وقد زاد من قسوتها أنَّ رجل المخابرات راح يقرأ ما كتبتُه على البطاقة لمشرف المدرسة، بصوت عالٍ وبطريقة تهكُّمية... جعلتني أحتقر نفسي، وأحتقر مشاعري، وأحتقر البلاد التي تسمح لرجل مخابرات بقراءة الشعر بهذه الطريقة.

الحقد كبداية للوعي السياسي

بعدما تعهَّدتُ لرجل المخابرات بالابتعاد نهائياً عن تلك الفتاة، رجوتُه إعادة البطاقة إليَّ. شعرتُ بأنَّ هذه البطاقة البائسة باتت أشبه بقطعة ملابس داخلية قذرة عليها كلّ خصوصيتي كإنسان، ولا يمكن أن تبقى هكذا أضحوكةً في أيدي الآخرين. حدجني بعينه مستغرباً وقاحتي، مُنهياً المقابلة بكلمة «انقلعْ». وانقلعتُ.

كان منسوب الإحساس بالعار أعلى من منسوب الإحساس بالمرارة. كنتُ كفتاةٍ نحيلةٍ وعاريةٍ وسط حلقة ضاحكة من الرجال الأوغاد، لا تعرف هل هي خجولة من عُريها أم هي خجولة من شكل جسمها الضامر؟

لقد استطاع رجل الأمن أن يقلب «حبِّي» إلى كراهية، تماماً كما استطاع الاستبداد قلبَ معنى كلمة «أمن» إلى معنى مرادف للخوف والرعب. فلا شيء كان يُثير في نفوسنا الهلع مثل لفظة «أمن»، مع أنها لفظة من المفترض أن تُثير معاني الطمأنينة والارتياح. ويبدو أنها من فكاهات الاستبداد تسمية الجماعات المُرهبة للناس

بمسمَّيات «الأجهزة الأمنية»، «قوى الأمن»، «الدوائر الأمنية»، «أمن الدولة»... وبالطبع ليست مفردة «الأمن» الوحيدة التي تمَّ الانقلاب على معناها، فثمَّة كلمات أخرى مثل كلمتَيْ «كتابة» و«خط» حيث أنهما اقترنتا بالمُخبرين، فالناس في سوريا يُنبِّهون بعضهم بعضاً إلى وجود عنصر مخابرات بينهم بالقول إنَّ «خطّه نظيف» أو «كتابته حلوة».

هذا الانقلاب في معاني الكلمات، والذي ساهم فيه المستبِدُّ والمستبَدُّ به على حدٍّ سواء، صنعَ معجماً رمزياً فريداً في سوريا يعرفه ويفهمه الجميع داخل البلاد، بل إنه مع مرور الوقت لم يعد يُثير أيَّ استغراب لدى الإنسان السوري، مع أنه يمكن أن يفتح أفواه غير السوريين من شدَّة الاستغراب.

فعلى سبيل المثال كلمة «أستاذ» في الجيش السوري لا تعني سوى «حمار»! وكلُّ مجنَّدٍ تُوجَّه إليه كلمة «أستاذ» سيشعر بالإهانة، مع أنه ربما يكون في حياته المدنيَّة أستاذاً بالفعل يمارس مهنة التعليم!

قطار الدكتاتور وسكَّة المجتمع

مثل هذه التناقضات، لمن يريد أن يرى المشهد بشكل أعمق وأكثر نزاهة، لم يُولِّدها فقط الاستبداد السياسي، وإن كان رافعتها الأساسية، بل أيضاً الاستبداد الاجتماعي الذي هو مجرَّد قناع -بات مع الأيام شفَّافاً ومُخرَّقاً- للاستبداد الديني. فالمجتمع السوري، المتديِّن في جزءٍ كبيرٍ منه، كان لديه استبدادٌ موازٍ ضدَّ نفسه، لكنَّ عنفه ظهرَ جلياً في حال المرأة.

لذلك طوَّرت النسوةُ آلياتٍ خاصَّةً وغريبةً للتعايش مع الاستبداد الذكوري، شبيهة بتلك الآليات الخاصة والغريبة التي طوَّرها المجتمع السوري للتعايش مع الاستبداد السياسي.

أحداث مثل اغتصاب الزوج لزوجته أو ممارسة العنف في سرير الزوجية، سيُنظَر إليها كفكاهاتٍ إذا صُنِّفت في خانة الجريمة قياساً بما تُعانيه النسوة هناك. لن أنسى ما حييتُ تلك الجارة، صديقة أُمِّي، التي راحت تفقد تركيزها الذهنيَّ شيئاً فشيئاً ولا تقوى على المشي

أحياناً بسبب الضرب اليوميّ بالعصا على مختلف أنحاء جسمها -بما في ذلك رأسها- من دون أي سببٍ سوى رغبة سادية وشرِّيرة لدى زوجها بفعل ذلك يومياً!

وعلى الرغم من أنَّ هؤلاء الرجال المهووسين بالعنف ضدَّ زوجاتهم وبناتهم قد لا يكونون ملتزمين دينياً، إلَّا أنهم في مسألة ضرب المرأة يلجأون إلى إسنادات دينية قاطعة لتبرير انحرافاتهم المَرَضية هذه، فلا يوجد بينهم مَن لا يحفظ ويُردِّد الآية القرآنية التي تقول: «الرجال قوَّامون على النساء بما فضَّل الله بعضهم على بعض». بل إني سمعتُ من أستاذ مادَّة التربية الدينية في المدرسة أغرب تفسير للآية التي تقول: «واهجروهنَّ في المضاجع واضربوهنَّ» حيث ادَّعى بأن معنى الهجر في المضجع هو ربط المرأة إلى السرير، لأن أحد معاني كلمة «هَجَر» هو ربط البعير بالحبل (الهِجار)! حين سمعنا ذلك، وكنَّا طلبة مراهقين، شعرنا بإثارةٍ جنسيةٍ لا مثيل لها ونحن نتخيَّل مشهد ربط المرأة إلى السرير ثم البدء بضربها قبل الشروع في اغتصابها!

كان ذلك الأستاذ يخترع الحجج للحديث عن الأحكام الشرعية بحقِّ المرأة، وكان يذكر دائماً الحديث النبويّ الذي يقول: «لا يُسأل الرجل في ما ضرب امرأته»، معدِّداً أسماء المُخرجين الكثر لهذا

الحديث كي يُثبت لنا صحَّته! ولأكثر من مرَّةٍ روى لنا، وأسهب في الوصف، كيف كان الزبير بن العوَّام يربط شَعر زوجته أسماء بشعر ضرَّتها ثمَّ ينهال عليهما ضرباً بالعصا حتى تنكسر!

***

هذا الاستبداد الاجتماعي ضدَّ المرأة؛ ضدَّ نصف المجتمع الذي يقوم بتربية النصف الآخر، شكَّلَ بيئة نموذجية لقيام الدكتاتورية، حيث لا فهم حقيقياً لمسألة الحقوق، بل لا معرفة بوجودها أصلاً.

أشخاص مثل حافظ الأسد استوعبوا المسألة تماماً، ولعبوا عليها حتى استنفدوها. صنعوا استبدادهم على هيكل استبداد آخر. وضعوا قطارهم على سكَّة جاهزة.

لذلك في الثمانينيات حين قام رجال رفعت الأسد مثلاً بنزع الحجاب بالقوَّة عن رؤوس الفتيات المسلمات، وضع حافظ الأسد كلَّ ثقله، عبر ماكنته الإعلامية الشعبية، لتوضيح ألَّا علاقة له بالأمر، بل إنه قدَّم عبر ضبَّاطه الكبار الاعتذارَ لنخبة من الوجهاء ورجال الدين الدمشقيين. لقد فهم حافظ الأسد بأن تصرُّفاً كهذا سيُنظَر إليه في مجتمع محافظ أسوأ بكثير مما سيُنظر إلى الجريمة التي ارتكبها هو وشقيقه حين دمَّرا مدينة حماة!

لكنْ مع طول أمد الاستبداد وثقتِه بأبديَّته، خصوصاً بعد

الانتصار الدموي على الانتفاضة المسلحة لـ«الإخوان المسلمين»، راحت العقلية الأمنية تتغيَّر لتخرج على وظيفتها الأصلية كحامية للنظام، فتصبح جزءاً من المجتمع نفسه، وتتدخَّل في ما لا يمسُّ أمن النظام في شيء. كما تدخَّلت في مسألة حبِّي مثلاً. لقد تحوَّل النظام الأمني -بسبب فوضوية مهمَّته- إلى نار تحت المرجل الاجتماعي الضخم.

المرجلُ كبيرٌ ويحتاج الكثير من الوقت ليغلي؟ صحيح. لكنه سيغلي في نهاية الأمر.

حين تسنَّى لي في بيروت أن أقرأ رواية بعنوان «ما يبقى» للكاتبة الألمانية كريستا فولف والتي تروي فيها أحداث يوم واحد من حياتها إثر اكتشافها بأنَّ عناصر المخابرات تتولَّى مراقبتها وزرع أجهزة تنصُّت في بيتها... خجلتُ أن أعترف بأني لم أتعاطف معها أبداً. فقد أزعجني هذا «الترف» الأمني الذي يسمح لها بالانتقال إلى مراقبة مراقبيها، من أجل التعرُّف إلى كيفية تنظيم العمل في سلكهم، أو طريقة تلقِّيهم الأوامر، أو معرفة إذا ما كانت مهمة المراقبة في سيَّارة أفضل من نوبة حرس أمام أحد الأبواب.

المخابرات في سوريا عالم آخر. كوكب أرضيّ آخر. وقد قُيِّضَ لي التعرُّف إلى أشخاص عاشوا تلك التجربة الرهيبة في أقبية

المخابرات. عاشوا الرعب بلحمه ودمه وعروقه النافرة. وطبعاً كانت تلك العوالم محطَّ اهتمام واسع لدينا، لأننا معرَّضون في أيِّ لحظة لدخولها.

***

أحد البعثيين النافذين في مدينة الشدَّادي والذي كان يُقال بأنَّ كلمته لا تصبح اثنتَين لدى المخابرات، جاءني ذات يوم إلى المكتبة التي كنت أعمل أجيراً فيها أثناء العطلة الصيفية للمدرسة، وطلب مجموعة كبيرة من القرطاسية وصورة للرئيس حافظ الأسد. وكما نبَّه عليَّ صاحب المكتبة لم أطلب منه ثمن المشتريات، تجنُّباً لأذاه المشهور به. ولم أكد أنتهي من وضع الأغراض المطلوبة في الأكياس حتى أمرني بأن أذهب إلى سيَّارته وأُثبِّت صورة الرئيس على زجاجها الخلفيّ. ولم أردّ، حتى أعاد أوامره عليَّ بنفاد صبر ظاهر. عندئذ قلتُ له إن هذا ليس من عملي.

«ترفض أن تُعلِّق صورة السيِّد الرئيس! ابن مَنْ أنت»؟

«ابن جهاد شرف الدين».

«آآ. رأسك كبير كرأس أبيك. سأكسرهما معاً».

قال ذلك غاضباً، ثمَّ انصرف.

أقفلتُ المكتبة على الفور، وهرولتُ مسرعاً إلى البيت لأخبر

أبي بما حصل كي يحتاط من هذا الشخص الشرير. لكنَّ أبي -وأمام هذه الإهانة على مسمع أُمِّي وأخوتي- ردَّ عليَّ: «بل أنا من سيكسر رأسه»!

فرحتُ أيَّما فرحة بذلك، مع أني كنت أعرف أن أبي لن يستطيع أن يمسّ شعرةً من رأس ذلك المخبر. لكنَّ الغريب أن المسألة مرَّت بسلام، بل إنَّ هذا الرجل جاء مرَّةً ثانيةً إلى المكتبة وأخذ ما يشاء دون أن يُظهر أي عدائية تجاهي!

والحقيقة أنَّ الغرابة في شخصيات «نجوم» المجتمع المخابراتي الفاسد هي مسألة تكاد تكون شائعة. فتلك الشخصيات تأتي بتصرُّفات لا يمكن وضعها حتى في خانة التسيُّب أو المجانية. أحياناً يُدمِّرون حياةَ إنسانٍ للاشيء. يُدمِّرون مستقبلَ عائلةٍ للاشيء. نبيل سليمان صديقي وزميلي في صفوف المرحلة الإعدادية، قُتِلَ في عهد حافظ الأسد بنزوةٍ إجراميةٍ لأحد أبناء المسؤولين الكبار أثناء خدمته الإلزامية، وسُلِّم لأهله جثَّةً هامدةً مع رسالة تهديدٍ بضرورة التزام الصمت التامّ.

***

عندما خرجتُ من غرفة المشرف مُهاناً بسبب بطاقةٍ كتبتُ عليها بيتَيْن من شعر الحب، حرتُ كيف أنتقم لكرامتي. لذلك كتبتُ بعد

أيام قليلة بيتَيْن آخرَيْن، ولكنهما في موضوع مختلف وخطير. فأثناء حديثٍ جرى في بيتنا ذات ليلة سمعتُ للمرَّة الأولى باسم «رياض الترك». وفهمتُ من الحديث الهامس والمختصر عنه بأنه سجين سياسي ومعارض شرس للنظام. حفظتُ الاسم جيِّداً. وإثر حادثة الإهانة كان أوَّل ما فعلتُه هو كتابة بيتَين من الشعر أهديتُهما سرَّاً إلى رياض الترك... هذا الذي لا أعرف عنه شيئاً سوى أنه سجين سياسي:

أُهديـكَ إزميلَ الأزاميلِ لتـدكَّ أنصـافَ التماثيلِ
لتدكَّ جدراناً لهمْ خُلِقتْ سيُزيلها ويدوسُها جيلي

اليوم، وأنا أستذكر هذين البيتَين اللذين نشرتُهما في ديواني الثاني المنشور سنة 2001، مع تحريف الإهداء ليُصبح إلى الشاعر بشار بن بُرْد الذي جُلِدَ حتى الموت بسبب اتهامه بالزندقة، واللذين أنهيتُهما عن سابق إصرار بكلمة «جيلي»، لا أشك للحظة بأنَّ القهر هو كاتبهما الأصليّ، ولستُ أنا. القهر وليس الموقف السياسيّ. القهر وليس حبّ الحرِّية. وهذا أمر خطير إذ أنك تثور بسبب القهر لا من أجل الحرِّية!

بل إني أجد معنىً كبيراً في «استسهالي»، آنذاك، تحريف الإهداء

من مناضل ضدَّ الدكتاتورية السياسية هو رياض الترك، إلى مناضل ضدَّ الدكتاتورية الدينية هو بشار بن بُرْد. فعلى الرغم من أني فعلتُ ذلك بدافع الخوف من الاعتقال، إلَّا أني لم أشعر يومذاك بأيِّ تأنيب للضمير.

فرياض الترك عندي يحمل الرمز ذاته الذي يحمله بشار بن بُرْد: التمرُّد على الاستبداد. لم أستطع حتى اليوم أن أفصل بين أنواع الاستبداد في بلادي ما دمتُ أرى إليها كجسدٍ متماسك يعضدُ بعضُه بعضاً.

***

في أحد صفوف المرحلة الثانوية، لا أذكر في أيِّ صفٍّ تحديداً، ثمَّة فقرة تتحدَّث عن حافظ الأسد كإنسان مؤمن. لكن هذا الإنسان المؤمن فعلَ ما لم يجرؤ الأنبياء أنفسهم على فعله، حيث ساوى بين كلامه وكلام القرآن، وذلك من خلال الامتحانات المدرسية. فطلبة سوريا يعرفون بأنَّ الإخلال بحرف واحد من أقوال الأسد (ثمَّة سؤال شبه دائم في امتحان مادة التربية القومية يقول: عدِّدْ خمسة أقوال للرفيق المناضل حافظ الأسد) يجعل الجواب خطأً، حتى لو كان المعنى صحيحاً!

وهذه المسألة -أي الالتزام بحَرْفيَّة كتابة الأقوال- تُطبَّق على

الآيات القرآنية في امتحان مادَّة التربية الدينية.

***

حين مات حافظ الأسد، نظرتُ إلى صورته الضخمة على باب المدينة، وقلتُ في نفسي: «حسناً، لقد مات الجسد، لكن كيف سيموت هذا الذي في الصورة؟».

«تمَّ قبولك كلاجئ»

آب 2007.

الاتصال الذي جاءني ذلك الصباح كان أشدَّ وطأة عليَّ من جميع الاتصالات المجهولة التي كانت تصلني بغرض التهديد والتخويف. فقد اتصلوا بي من «المفوَّضية السامية لشؤون اللاجئين» ليقولوا لي: «مبروك... تمَّ قبولك كلاجئ».

لم أفهم إلى اليوم كيف يكون تحوُّلُ إنسانٍ إلى لاجئ يستحقُّ التهنئة. ولكنْ كي أكون مُنصفاً فالموظَّفة اللبنانية باركتْ لي صادقةً لأنها هي نفسها -على ما أعتقد- تتمنَّى الحصول على هذه الصفة (لاجئ) ليُتاح لها العيش في دول أوروبا أو أميركا.

ذهبتُ على الفور إلى مبنى «المفوَّضية» واستلمتُ الورقة التي تُثبت صفتي الجديدة، ووجدتُ في أعلاها عبارة: «وثيقة الاعتراف بصفة اللجوء»، مع معلومات عنِّي ورقم خاصّ بي. فاجأني البؤس الظاهر في صورتي المطبوعة على الورقة. والحقيقة أني لم أتحضَّر لتلك الصورة، فأحلق ذقني مثلاً، لأنهم التقطوها لي في إحدى

الجلسات. كما أنَّ الأبعاد غير الدقيقة للصورة ساهمتْ في تكبير أنفي أكثر وتصغير عينيَّ أكثر. لذلك حين أطلعتُ زوجتي على الورقة قلتُ لها مازحاً: «تمَّ قبولي كبائس»!

غادرتُ مبنى «المفوَّضية»، وكلُّ همِّي طرد المشاعر التي عصفتْ بي داخله وأنا أتسلَّم ورقة قبول طلب اللجوء، لأعود إلى الأمل الكبير الذي رميتُ نفسي فيه في الفترة الأخيرة وأنا أُحضِّر لإطلاق المجلة الشعرية.

لاجئ؟ ولماذا أحزن وقد سعيتُ إلى هذا الوضع الجديد بنفسي؟ ولماذا أكتئب وقد بتُّ الآن محميَّاً أكثر؟

طبعاً كنتُ أخدع نفسي بهذا الكلام، لأنَّ بطاقة اللجوء لا تُساوي شيئاً في لبنان إذا قرَّرت المخابرات السورية قتلي أو خطفي، خصوصاً أني عرفتُ بوجود مذكَّرة توقيف سياسية بحقِّي. بل إنَّ مخاوفي زادت من احتمال تسرُّب هذه المسألة إلى المخابرات السورية.

***

والحقيقة أنني لم أخرج من هذه الدوَّامة أبداً منذ العام 2002 حين بدأتُ الكتابة في الصحافة اللبنانية ضدَّ النظام وكنت في الخامسة والعشرين من عمري. وأذكر آنذاك أني حين نشرتُ أولى مقالاتي السياسية عدتُ لأنام في أمكنة لا تخطر على بال،

كالنوم على شاطئ البحر أو النوم في ورشة بناء مهجورة، ليقيني أنَّ اعتقالي وأنا كاتبٌ مغمور لن يكون له أي صدىً وسأُنسى في أقبية المخابرات إلى الأبد.

لكنَّ ما فاجأني فعلاً في تلك التجربة أنَّ الخطر لم يأتِ من جهاز المخابرات النظاميّ، بل من طلبة سوريين في لبنان كنت أعتبرهم أصدقاء وأسعد برفقتهم! وهكذا بات للخطر وجهٌ وعينان ويدٌ تكتب التقارير.

ففجأة قاطعني الطلبة السوريون في كلية الآداب بالجامعة اللبنانية حيث كنتُ أذهب إلى هناك وألتقيهم في كافتيريا الجامعة. لم يعد معظمهم يتكلَّم معي، والسبب أنَّ طالباً كنتُ أعتبره صديقاً مقرَّباً، والذي كما سأكتشف لاحقاً لديه ارتباطات مخابراتية جدِّية، ضغطَ على رئيس مكتب الطلبة لإصدار تعميم شفهيٍّ بمقاطعتي. والأغرب أنه راح يؤكِّد لهم بأنَّ هناك أمراً بالقبض عليَّ سيُنفَّذ قريباً! وطبعاً صار هو مَنْ يزوِّد المخابرات بالتقارير عنِّي، وقد سافر إلى دمشق خصيصاً لذلك.

لقد كانت صدمةً كبيرةً لي أن أكتشف أنَّ صديقي مُخبر، بل ومُخبر يبذل كلَّ جهده لزجِّي في السجن وتدمير مستقبلي بعدما تجرَّأتُ على فتح فمي في انتقاد النظام.

ولأنَّ قصَّةً غريبةً كهذه بدايتها سيِّئة، فلا بدَّ أن تكون نهايتها أكثر سوءاً.

فحين فشل هذا الطالب المُخبر في تحقيق تعهُّده بالقبض عليَّ في لبنان وترحيلي إلى سوريا لزجِّي في السجن، اخترع مَخْرجاً للمعضلة من أغرب ما يكون.

فبعد شهرَين من مقاطعتي والتحريض عليَّ، تفاجأتُ ببعض الطلبة السوريين يأتون إلى كافتيريا الجامعة ويُسلِّمون عليَّ! وكنت على وشك أن أصدِّق أن مقالاتي نجحت في بثِّ روح التمرُّد في نفوسهم وتحريضهم على الوضع القائم... لولا أنَّ أحدهم كشف لي السرّ: لقد أخبرهم الطالب المُخبر بأنه لم يُقبَض عليَّ لأنه اكتشف بأنني من المخابرات وبأنني أُوفِدتُ في مهمَّة خاصة للانخراط في الصحافة اللبنانية لـ«شقّ صفوفها»!!

لقد كانت طريقة شيطانية للخروج من ورطة التعهُّد بالقبض عليَّ، ولتحطيم سمعتي في الوقت ذاته!

بل إنَّ هذا الطالب قام بإقناع مسؤول الطلبة السوريين في الجامعة بإلغاء قرار حظر تعامل الطلبة معي! وكان قرار الإلغاء ذاك أشدَّ وطأة عليَّ بكثير من قرار المقاطعة ذاته. لقد أراد هذا الطالب تحويلي في نظر بقية الطلبة إلى مُخبر مثله، وتحويل جرأتي

إلى تمثيليَّة. وأثناء هذه اللعبة القذرة لم أعد أنا المهمّ هنا بل ما يفهمه الطلبة، والرسالة كالآتي: لا أحد يجرؤ، ومَن يجرؤ فهو يُنسِّق مع المخابرات!

في تلك الأيام شعرتُ بأني في غابةٍ حقيقيةٍ، وأنَّ عليَّ امتلاك الأنياب والمخالب لحماية نفسي. لقد تجلَّى حافظ الأسد أمامي كما لم يتجلَّ من قبل. تجلَّى الدمار الذي زرعه في نفوس الأجيال السورية المتعاقبة. فعلى ما يبدو فإنَّ قطرات الدم التي كنا نخسرها ونحن نبصم بها أثناء الاستفتاءات الرئاسية كان يجري تعويضها بدمٍ فاسدٍ.

لقد فرَّغ حافظ الأسد الجيلَ من فُتوَّته ومعناه ومناقبيَّته. لقد حوَّله إلى جسدٍ بلا عظام، إلى كائنٍ رخويٍّ يستطيع وضعه في القالب الذي يريد، وأسماء القوالب جاهزة بالطبع: وطنية، قومية، مواطن نموذجيّ... والمصطلح الأخير تحديداً كان يتجسَّد لدينا في أكثر الأشكال كاريكاتورية، خصوصاً أنَّ الفساد كان يُمارَس بشكل علنيّ، بل وبطريقة منهجية أحياناً، حتى أنَّ الشرطي الذي يجب أن يكون رمزاً للنزاهة كان لقبه الشهير في سوريا «أبو خمسة» (يقصدون الخمس ليرات التي كان يتقاضاها الشرطي كرشوة، قبل أن تصبح خمساً وعشرين، ثمَّ خمسين...).

مع ذلك كانت الدعاية الرسمية ماضيةً في رسم الصورة النموذجية للمواطن السوري، فحتى اللصّ السوري هو لصٌّ نموذجيٌّ في الإعلام السوري!

ففي برنامج أسبوعيٍّ شهير، يبثُّه التلفزيون الرسميّ، اسمه «الشرطة في خدمة الشعب» مخصَّص لإنجازات الشرطة في القبض على المجرمين واللصوص (وكان حريَّاً بهذا البرنامج استضافة بعض هؤلاء الشرطة أنفسهم ورؤسائهم الذين سرقوا الناس أكثر مما فعل اللصوص) نستطيع إيجاد القدوة الحسنة حتى بين أصحاب الجنح والقَتَلة!

فمن خلال هذا البرنامج يطلُّ علينا المذيع في ملامح متجهِّمة تجعله أقرب إلى شخصيتَي الـمُخبر والمحقِّق منه إلى شخصية المذيع، خصوصاً أنَّ جميع المجرمين ينادونه «سيدي»، ليتكرَّر السيناريو الآتي في كلِّ حلقةٍ:

- وين صرفت المصاري المسروقة؟
- على الملذَّات الشخصية يا سيدي.
- إنتْ بحاجة للسرقة؟
- لا والله يا سيدي.
- وليش سرقت؟

- الشيطان لعب بعقلي يا سيدي.
- ندمان؟
- ندمان يا سيدي.
- وشو بتنصح المشاهدين؟
- بنصحهن يبتعدو عن هالطريق يا سيدي.

وهكذا في كلِّ حلقة لا نجد إلا المواطنين النموذجيين. حتى اللصوص منهم نجدهم نادمين، مؤدَّبين، يقدِّمون النصح للناس... بل حتى الإرهابيين!

فالمجموعة الإرهابية التي قامت بتفجير المزَّة يوم 27 نيسان 2004 واعتقلت بعضَهم الشرطةُ السوريةُ، التقاهم المذيع نفسه، وسألهم الأسئلة نفسها مع بعض التحريف بسبب تغيُّر الموضوع من سرقة إلى إرهاب. نموذجية هؤلاء الإرهابيين وصلتْ بهم يومها إلى درجة التزام الحدود الوطنية التي يرسمها النظام السوري، فهم قاموا بالتفجير بسبب «الاعتداءات الإسرائيلية» فقط، وهم غير مهتمِّين بأفغانستان أبداً، كما صرَّحوا للتلفزيون الرسميّ!

الغريب أنه في أحيان كثيرة يُصدِّق بعض اللصوص والمحتالين تلك النموذجية في أنفسهم، ويُطبِّقونها بطرق عجائبية. ولديَّ هاهنا مَثَلٌ فاقع عن تطبيق تلك النموذجية لدى أحد هؤلاء.

ففي مطلع التسعينيات كان ثمَّة أستاذ للجغرافيا، يُدرِّس في مدينة الشدَّادي، باع الطلاب ما يُسمِّيها «ورقة التوقُّعات»، وهي طريقة للنَّصْب والاحتيال انتشرت في مدن سوريَّة عديدة، حيث يزعم الأستاذ بأنه يعرف أكثر من 80 في المئة من أسئلة امتحان البكالوريا، وبناءً على ذلك يبيع الطلاب تلك التوقُّعات مع قَسَم معظَّم وتأكيدات قاطعة بأن توقُّعاته صحيحة، بل ومسرَّبة من شخصية مهمَّة في الدولة.

طلَّاب كثر رسبوا بسبب تلك الورقة حيث صدَّقوا أمثال هذا الأستاذ المحتال، وحين دخلوا الامتحانات لم يجدوا في ورقة الأسئلة أيَّ سؤال من تلك الأسئلة «المتوقَّعة»!

أستاذ الجغرافيا هذا لم يضع فقط توقُّعات مادَّته -أي مادَّة الجغرافيا- في تلك السنة، بل وضع كذلك أوراقاً لجميع المواد، فجنى حوالى خمسين ألف ليرة سورية (أي ما يعادل مجموع رواتبه طوال سنة كاملة في ذلك الوقت) بعدما تعاقد مع مكتبة لديها آلة تصوير (فوتوكوبي) -وكانت مثل هذه الآلة ما تزال نادرةً آنذاك في مدينة نائية كالشدَّادي- وكان البيع يجري بشكلٍ علنيٍّ، وطلَّاب القرى البعيدة يأتون إلى الشدَّادي لشراء تلك الأوراق.

أنا كنتُ ممن اشترى تلك الأوراق قبل بدء الامتحان ببضعة

أيَّام، وقد ذهبتُ إلى ذلك الأستاذ وقابلته في غرفته بـ«مساكن العزَّابية»، وهذه المساكن عبارة عن مجمَّع كبير من البرَّاكيات الخشبية وهي مخصَّصة لسكن المعلِّمين الذكور من خارج محافظة الحسكة والذين كانوا بغالبيتهم من قرى الساحل السوري. وسألتُ ذلك الأستاذ عن الضمانات التي يُقدِّمها لي كطالب لصحَّة توقُّعاته، فقال لي: «كلمة شرف». وصدَّقتُ.

وحين بدأ اليوم الأول من الامتحان لم يأتِ أيُّ سؤال من تلك الأسئلة التي باعنا إيَّاها، ولولا تحضيري ومتابعتي لبعض دروس المادَّة التي أمتحن فيها لكنتُ رسبتُ.

شعرتُ والطلاب بحنقٍ شديدٍ بعد الانتهاء من امتحان المادَّة الأولى، لكنَّ الرأي استقرَّ بيننا على أن نعطيَه فرصةً أخرى لمادَّة جديدة لنتبيَّن حقيقة «كلمة الشرف» التي أعطاها لكلٍّ منَّا.

والمفارقة التي لن أنساها ما حييتُ أنَّ هذا الأستاذ المحتال نفسه هو من جاء في اليوم التالي بصفة «مُراقب» إلى القاعة التي كنتُ أمتحن فيها!

وحين رأيته يدخل القاعة شعرتُ بالإثارة والفرح: فإن صحَّت توقُّعاته نجحتُ، وإن لم تصحّ فهو موجود أمامي وسأغشُّ على مرأى منه علناً ولن يستطيع فتح فمه بكلمةٍ لأنَّ الفضيحة في انتظاره.

وما حصل طبعاً أنَّ أيَّ سؤالٍ من توقُّعاته لم يأتِ في ورقة الأسئلة. فتركتُ النظر في الورقة التي أمامي وأخذتُ أنظر إليه، إلى عينَيه، نظراتٍ صريحةً ذات معنى واضح.

لم أكن الوحيد في القاعة الذي كنتُ أنظر إليه تلك النظرات، فقد كان فيها أكثر من طالبٍ وقع ضحية احتياله.

كانت القاعة مقسومةً إلى ثلاثة صفوف من المقاعد، وكان فيها مراقبان (أحدهما الأستاذ المحتال) يتناوبان على المرور في الممرَّين اللذين يفصلان بين الصفوف الثلاثة لمراقبة الطلّاب.

كنت أوَّل الذين بدأوا باستثمار الوضعية الغريبة لأستاذ محتال يراقب ضحاياه من الطلبة الذين يُجرِّبون الاحتيال!

أخرجتُ «الروشيته» حين صار هو المولج مراقبة الجهة التي أجلس فيها، وما إنْ بدأتُ الغشَّ حتى وجدتُه فوق رأسي يهمس لي مُهدِّداً بطردي من القاعة!!

والحقيقة أنني فوجئتُ بموقفه تماماً، فهدَّدتُه بصوت أعلى قليلاً من صوته بأنني سأفضحه.

سمع الأستاذ الآخر همسنا الحادّ فجاء مستفسراً، فطمأنه الأستاذ المحتال وطلب منه العودة إلى الجهة التي يُراقب فيها. وانقلبت الحكاية إلى تحدٍّ بيني وبينه، أو هكذا هوَ حوَّلها. وصرنا

في استعصاء حقيقيٍّ: كلانا محتال وكلانا يبتزُّ الآخر. ولو طُلِبَ من مخرج سينمائي نَقْلَ ذلك المشهد لما تردَّد في تصوير محتالَين كلاهما يضع المسدَّس في صدغ الآخر!

لكنَّ هذا الاستعصاء سرعان ما انتهى بيننا حين قال لي في تهديد لا يخلو من تلميح مخابراتيٍّ: «رح تندم». وقد كنت أعرف بأنَّ له ارتباطات مخابراتية فعلاً، وإلَّا لما استطاع أصلاً ممارسة احتياله بهذا الشكل العلنيّ، أي أنه كان محمياً بالتأكيد ويُعزِّز هذه الحماية برشوةِ مَنْ هُم أقوى منه.

كلُّ البطولات تنتهي حين تبدأ المخابرات. أيُّ تهديدٍ كان يمكنني آنذاك ركله بقدمي إلَّا التهديد بالمخابرات.

فكَّرتُ قليلاً بإمكان أن أُشحَط إلى المفرزة (الأمنية)، ثمَّ أذعنتُ.

كتبتُ بسرعةٍ ما أعرفه من أجوبةٍ على ورقة الامتحان وسلَّمتُها بيدٍ شبيهةٍ بيدي التي أحمل فيها الآن ورقة قبول لجوئي، أو ربما شبيهة بيد المذيع مروان شيخو وهو يحمل الورقة الشهيرة التي قرأ منها على شاشة التلفزيون السوريّ نبأَ وفاة حافظ الأسد.

نعي حافظ الأسد

من على شاشة التلفزيون السوريِّ قرأ المذيعُ الدينيُّ مروان شيخو نبأَ وفاة حافظ الأسد وهو يحرص على إظهار ارتعاش جسمه من خلال ارتعاش الورقة التي أبرزها أمام الشاشة بشكل واضح ومقصود. ولو قُيِّضَ لشخصٍ، لا يعرف من هو مروان شيخو هذا، أن يرى يومئذٍ مشهد الارتعاش على الشاشة لتساءل السؤال المنطقي الآتي: هل سبب تلك الرعشة النفاق أم الخوف؟

بالطبع نحن لم نتساءل عن السبب، ليس لأننا نعرف، بل لأن المسألة باتت بديهية في سوريا ولا تحتاج إلى سؤال.

كان مروان شيخو يتوقَّف بين جملةٍ وأخرى وكأنه على وشك الانهيار في نوبة بكاء. وهذا ما فعله -إنما بإتقانٍ أكبر- الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي حين صلَّى على الجثمان نواحاً في «مسجد ناعسة» البالغ الفخامة والذي بناه حافظ الأسد تكريماً لذكرى والدته من «ماله الخاص» كما كان يُردِّد الإعلام الرسميّ باستمرار. وهو الإعلام ذاته الذي كان يقول إنَّ الأسد وُلِدَ في أسرة فقيرة!

شكَّلَ مروان شيخو جزءاً إجبارياً من ذاكرة السوريين بسبب برنامجه الدينيِّ الأسبوعيِّ كلَّ يوم جمعة، والذي كان يتفنَّن فيه بإيجاد الذرائع للحديث عن الرئيس، وهو على كل حال مَن استكمل دزينة ألقاب الأسد حين أضاف إليها لقب «المؤمن الأوَّل».

لكنَّ ذلك اليوم، يوم وفاة الدكتاتور، كان يوم مروان شيخو بلا منازع. فقد نعى شيخو الأسدَ على الملأ في التلفزيون، ثمَّ رافق الجثمان إلى المسجد، ثمَّ قرأ كلمة مطوَّلة نطق خلالها بجملةٍ فذَّةٍ يمكن لعلماء النفس المختصِّين بدراسة المجتمعات التي ترزح تحت نير الأنظمة الدكتاتورية أن يؤلِّفوا حولها كتاباً كاملاً.

فبعدما صرخ ضمن السيناريو المعروف: «كلُّنا الدكتور بشار، كلُّنا الرائد ماهر، كلُّنا الأستاذ مجد، كلُّنا إخوة للسيِّدة الدكتورة بشرى، وكلُّنا أبناء تلك الفاضلة السيِّدة الأولى...»، وبعدما تحدَّث عن الجماهير التي خرجت «بصورة عفوية» وهي «تذرف الدموع حزينةً، وفي الوقت نفسه تبايعك (لبشار) وتلتفُّ حولك بعفويةٍ»... بعدما قال ذلك كلَّه، توقَّف مروان شيخو عن الكلام، ثمَّ قال أوَّلَ جملةٍ صادقةٍ في خطابه ذاك.

نظر إلى التابوت الذي أمامه وقال مخاطباً الطاغية الميِّت: «لماذا لا تتكلَّم؟ أنت تسمعني الآن»!

لقد قال شيخو في تلك اللحظة الجملةَ التي كان سيقولها أيُّ سوريٍّ سيقف أمام جثَّة حافظ الأسد: لماذا أنت لا تتكلَّم؟ هل متَّ فعلاً؟

كانت جملة شيخو تلك أشبه بيدٍ مرتعشةٍ تهزُّ الجثَّة بخوفٍ كي تتأكَّد من أنَّ صاحبها قد مات فعلاً. يد تمسك جثَّة حافظ الأسد من كتفها وتهزُّها بخوفٍ سائلةً صاحبها: هل أنت ميِّت حقّاً؟

خلال أيام الحداد تلك زارنا أحد أصدقاء العائلة من الشيوعيين وقال لأبي إنه لا يُصدِّق بأنَّ حافظ الأسد قد مات. ثم حدَّثه عن أنَّ ستالين حين مات بقي قادة الاتحاد السوفياتي أيَّاماً لا يجرؤون على إعلان الوفاة.

توقَّف مروان شيخو مجدَّداً عن الكلام، وقال الجملة الصادقة الثانية في خطبة النفاق تلك: «لقد تعوَّدنا عليك يا سيِّدي... لقد تعوَّدنا عليك يا سيِّدي».

بالفعل، لقد تعوَّدنا عليك أيها الطاغية. لقد تعوَّدنا على الخوف الذي نشرتَه في البلاد. تعوَّدنا على الزنازين وفروع الأمن واختفاء الناس بلا أثر. تعوَّدنا على الهتاف بحياتك «إلى الأبد». لقد تعوَّدنا على «الأبد» الذي اتَّضح بأنه ينتهي في سنة **2000**.

ومن بين هذا الركام من المشاعر الغريبة والمتناقضة بزغتْ نكتة

ذكية تجمع موت الأسد الابن وموت الأسد الأب (باسل وحافظ)، تقول بأنَّ حافظ الأسد حين مات ودخل جهنم فوجئ بوجود ابنه باسل فيها فقال له مستغرباً: «على أساس أنت شهيد»! فردَّ عليه باسل: «وعلى أساس أنت للأبد»!

لقد كُسِرَ شيءٌ كبيرٌ في حياة السوريين تلك الأيام، وبعد مضي بعض الوقت اكتشفوا بأنَّ هذا الذي كُسِرَ هو أحد أجزاء التمثال الرمزيّ لحافظ الأسد في عقولهم.

لقد صرنا نسمع الناس -بعدما تأكَّدوا بأنَّ الطاغية قد مات- ينتقدون الفساد والظلم بشكلٍ علنيٍّ، في الباصات والجامعات والسهرات العائلية. لقد بتنا نسمع بشكل صريح أسماءَ المسؤولين ورجال المخابرات واللصوص الكبار. اكتشف السوريون، بعد ثلاثين سنة من «الأبد»، أنَّ الطغاة بشرٌ ويموتون مثلهم بالسرطان. اكتشفوا بأنَّه ثمَّة من هو أخبث من حافظ الأسد، وبأنَّ تكنية السرطان باسم «المرض الخبيث» محقَّة تماماً.

في تلك السنة وقعَ بين يديَّ كتابٌ لسارتر اسمه «الذباب»، وهو كناية عن مسرحية تشرح ببساطةٍ وعمقٍ مسألة الحرِّية.

كان هذا الكتاب أفضل ما يمكن لي قراءته في تلك الأيام التي أعقبت موت الدكتاتور. وبسببه تمنَّيتُ، لمرَّة واحدة في حياتي، أن

أكون ممثِّلاً مسرحياً كي أؤدِّيَ المشهد الختاميَّ في تلك المسرحية. يتحدَّث ذلك المشهد -كما أذكر- عن اكتشاف الحرِّية فجأةً. فأورست بطل المسرحية الذي قُتِلَ أبوه الملكُ على يد زوجته وعشيقها الذي حلَّ ملكاً مكانه، لم يكن يعرف ما كان عليه أن يفعل: هل ينتقم لوالده أم يرضى بقَدَره؟

وأثناء ذلك كان يطلب عونَ الإله جوبتير في إرشاده إلى ما يجب عليه القيام به. وبالطبع -وكما في كلِّ العصور- كان الإله متحالفاً مع الملك، لذلك كان يحثُّ أورست على الرضا بالنصيب.

لكنَّ أورست الذي اكتشف حرِّيته فجأةً قرَّر عدم الانصياع لطلب الإله، وبالتالي أراد الثأر لأبيه.

وعلى الفور يذهب الإله جوبتير إلى الملك ليُحذِّره من أورست، طالباً منه تجهيز جيشه. إذَّاك يسأله الملك متعجِّباً: وهل أورست قويٌّ إلى هذه الدرجة؟ فيجيبه الإله بجوابٍ من أبلغ ما يكون: «أورست يعرف بأنه حرٌّ».

لقد حكى الإله جوبتير للملك عن السرِّ الذي يتقاسمه الآلهة والملوك وهو «أنَّ الناس أحرار وهم لا يعرفون ذلك».

في تلك الأيام اكتشف السوريون ذلك السرَّ من دون الحاجة إلى قراءة مسرحية سارتر. ولذلك، وخوفاً من هذه المعرفة التي باتت

على وشك الانفجار، سمح النظامُ السوريُّ بخروج ما سُمِّيَ لاحقاً بـ«ربيع دمشق» الذي هو في الحقيقة ربيع تلك الجملة عن اكتشاف الناس بأنهم أحرار، خصوصاً بعد مهزلة تعديل دستور البلاد في خمس دقائق للإتيان بابن الطاغية رئيساً مكانه.

وبعدما ارتفعت يد مروان شيخو لحمل ورقة نعي الأب، ارتفعت أيدٍ شبيهةٌ بها في «مجلس الشعب» موافقةً على تعديل الدستور وتنصيب الابن رئيساً.

ولم يُكلِّف رئيس المجلس عبد القادر قدُّورة نفسه آنذاك عناءَ عدِّ تلك الأيدي المرتفعة، حيث قال دون فاصل زمنيٍّ حقيقيٍّ بين السؤال والجواب: «موافقون؟ إجماع»... جامعاً الكلمتَين في جملةٍ واحدةٍ متَّصلةٍ وعديمة المعنى ككلِّ الشعارات التي ملأت البلد طوال ثلاثين عاماً.

حافظ الأسد ضاحكاً وسط الخراب

هذا الازدراء للرأي العام لم يكن وليد ذلك اليوم، بل مهَّدتْ له عقودٌ من استغباء المواطن السوري والاستخفاف بذكائه عبر تقديم أضعف الروايات له كحقائق لا يرقى إليها الشك. وأحياناً كثيرة كان التناقض، الذي يقوم النظام بتسويقه كحقائق، جارحاً لكرامة الناس بكلِّ معنى الكلمة.

***

دمَّرتْ إسرائيل مدينة القنيطرة أوائل السبعينيات قبل أن تنسحب منها، ودمَّر نظام الأسد مدينة حماة أوائل الثمانينيات قبل أن يدخلها. لكنَّ التعامل المتناقض بين الحالتَين من قبل حافظ الأسد كان فاقعاً ومكشوفاً.

ففي مقابل إصراره على إبقاء القنيطرة مدمَّرةً كدليل على همجية الإسرائيليين، سارع إلى إعمار حماة بأسرع وقت.

ولأكثر من عقدٍ من الزمن، كان المواطن السوري أمام مشهدَيْن

متناقضَيْن على التلفزيون السوري: بثٌّ شبه يوميّ لمناظر من مدينة حماة بعد إعمارها، في مقابل بثٍّ دائم لمشاهد الدمار في مدينة القنيطرة!

مثل هذه التناقضات كانت جزءاً من طبيعة النظام، والتي تحوَّلت شيئاً فشيئاً لتصبح جزءاً من طبيعة المجتمع.

ولا أنسى تلك الصورة الكبيرة التي نشرتها جريدة «الثورة» في التسعينيات لمؤخِّرة باص حكومي تعرَّض لحادث سير: كانت مؤخِّرة الباص محطَّمة بشكل كبير، فيما بقيتْ سليمةً ولم تُمسّ بأذىً تقريباً الصورةُ القماشيةُ لوجه حافظ الأسد المكرَّر خمس مرَّات وهو يضحك، والمثبَّتة في الإطار العلويّ للزجاج الخلفيّ الذي تكسَّر بشكل كامل.

يومذاك أدهشني، أنا المراهق، ما اعتبرتُه غباءً من القائمين على الجريدة، إذ كيف لم ينتبهوا إلى مفارقة أنَّ الرئيس يضحك وسط كلِّ هذا الخراب؟! كيف لم يحسبوا حساباً لتلك الرمزية الفاقعة في ضحكة الرئيس التي تطلُّ على ذلك الركام وكأنها سعيدةٌ به؟!

لكني وبعدما لاحظتُ عدم انتباه الناس من حولي لهذه المفارقة، تقبَّلتُ الفكرة وغفرتُ للقائمين على الصحيفة عدم اكتراثهم.

بعض الأشياء التي يجب أن تكون مثالاً نموذجياً للتهكُّم تغدو،

مع التعوُّد، بلا أيِّ معنى يُثير عنصر المفارقة.

في العام 2000 عملتُ ليوم واحدٍ في بستان أحد اللبنانيين، وكان من المفترض أن أعمل لديه لأكثر من أسبوع، لكنَّ ما حدث بيني وبينه مساء ذلك اليوم نسف كلَّ شيء. فقد صعدتُ إلى بيته آخر النهار -حيث تأخَّرتُ في العمل إلى ما بعد السابعة مساءً- لاستلام أجرتي اليومية وانتظرته في صالون بيته، وكان في الصالون تلفزيون كبير يبثُّ عن الفضائية السورية (ويبدو أنَّ هذه الحركة كانت مقصودةً لظنّ اللبنانيين أنَّ كثراً من العمَّال السوريين هم مخبرون أيضاً) التي لم أكن قد تابعتها منذ أشهر بسبب حياة البؤس والتشرُّد التي عزلتني عن العالم بشكل كبير. وقد لفتني في أسفل الشاشة وجود مربَّع لجهة اليسار يظهر فيه مذيع خاصّ بالصمّ والبكم يرافق مذيعَ نشرة الأخبار بالإشارة.

ومع أنني لم أكن في مزاج التهكُّم والسخرية، إلَّا أنني قلتُ لمشغِّلي اللبناني عندما جاءني لتسليمي الثمانية دولارات التي هي أجرتي، إنَّ مذيعاً للصمّ والبكم هو مذيعٌ مثاليٌّ في بلد مثل سوريا. وضحكتُ لوحدي للنكتة، وأنا أقول عن حافظ الأسد: «الله يغمِّقله» (أي أرجو من الله أن يُعمِّق قبره أكثر).

لم يشاركني الضحك ذلك اللبناني، والذي كنتُ متأكِّداً من أنه

في دخيلة نفسه كارهٌ لحافظ الأسد وجيشه ونظامه، بل خرج من الصالون دونما سبب مفهوم، ثمَّ عاد بعد أقلّ من دقيقة ليتَّهمني بأنني أحاول توريطه في الكلام، وبأنني عنصر مخابرات! ثمَّ قال لي بأنه لم يعد يحتاجني للعمل في أرضه!

كان مثل هذا السيناريو «منطقياً» عندي لو أنَّه حدث في سوريا، لكني سأكتشف بعد ذلك بأنَّ صدى الرعب الذي خلَّفه حافظ الأسد في لبنان كان أكثر قوَّة، بسبب الفلتان الأمنيّ الذي يعيشه لبنان. لذلك كانت انتفاضة 14 آذار، التي خرج فيها حوالى المليون لبناني، كارثيةً بالنسبة إلى نظام كان مطمئناً إلى أنَّ الزرع الذي رعاه طوال عقود لن يُزهر شوكاً يُدمي كفَّيْه.

في تلك الأيام التي استخدم فيها الإعلامُ السوريُّ لأوَّل مرَّة مصطلحَ «المعارضة»، وكان يقصد بها طبعاً المعارضة اللبنانية له لا السورية، وافقت السلطة، في حركةٍ غريبةٍ، على إجراء ما يُشبه المناظرة بينها وبين المعارضة (اللبنانية) على شاشة تلفزيون لبناني من خلال مشاركة وزير الإعلام السوري ليُناظر أحد أفراد تلك المعارضة. لكنَّ المناظرة انتهت قبل أن تبدأ حين زعم وزير الإعلام بأنه لا يسمع السؤال بسبب «عطل فنِّي»!

تنبَّه نظام الأسد، فجأةً، إلى نقطة ضعفه القاتلة: الإعلام. انتبه

إلى كارثته الرسمية المسمَّاة بأسماء صحفه وتلفزيونه وفضائيته.

قالت جريدة «الثورة» في موقعها الالكتروني إنَّ مواطنين سوريين طالبوا «ببناء جدار عازل بين سوريا ولبنان» وآخرين طالبوا «بدخول الجيش السوري مجدَّداً لحماية المواطنين السوريين في لبنان». وتفوَّقت عليها في الابتذال شقيقتها جريدة «تشرين» التي نشرت خبراً غرائبياً في نيسان 2006 يقول إنَّ «زلزالاً مدمِّراً سيضرب لبنان»! أمَّا المصدر فليس سوى «توقُّعات معمِّرين لبنانيين»! بل إنَّ الصحيفة قاستْ أيضاً شدَّة الزلزال المتوقَّع بـ«سبع درجات على مقياس ريختر»!

فجأةً ظهر بأنَّ النظام الذي كان يُحكى عن «عبقريته» الأمنية، مكشوفٌ إعلامياً وغبيٌّ. وحين حاول الانفتاح تحوَّل إلى أضحوكةٍ، بعدما كشفَ -دون أن يقصد- عن عمق الهوَّة التي تفصله عن العصر.

حين كنت أسمع الفضائية السورية في تلك الفترة تتحدَّث عن أنَّ العراقيين الموجودين في سوريا يقترعون بحرِّيةٍ ونزاهةٍ... كنتُ أتساءل: وماذا عن سوريي سوريا؟!

آنذاك قرأتُ خبراً يقول إنَّ أحد العراقيين رُزِقَ بطفلة يوم الانتخابات فسمَّاها «انتخابات». وقلتُ في نفسي: كم كان أبي

رحيماً حين لم يُسمِّني «استبدادْ» أو «قمعْ»!

حالة الذعر التي عمَّتْ إعلام النظام لا تشبه إلا حالة ذعر رجل الكهف حين يُوضع على خشبة مسرح وتُسلَّط عليه الأضواء.

كلُّ الفكاهات التي يمكن أن تخطًر على البال قام بها النظام وإعلامه المتخلِّف. وقد بلغ الخزي بهما آنذاك درجة إجبار أطفال مصابين بالشلل الدماغيِّ على الاعتصام احتجاجاً على تقرير رئيس لجنة التحقيق الدولية في قضية اغتيال رئيس الوزراء اللبناني الأسبق رفيق الحريري!

حينما رأيتُ صورة هؤلاء الأطفال المعوَّقين «المعتصمين» دون أن يفهموا ما يجري حولهم، عادت إلى ذاكرتي تلك الصورة في جريدة «الثورة» لحافظ الأسد وهو يبتسم وسط الخراب، وكأنه سعيدٌ به حقّاً!

هديةٌ مضحكةٌ

من أطرف ما قد يحصل لكاتبٍ أن يكون إهداءُ كتابه إلى شخصٍ ما مصدرَ نوبةٍ من الضحك الشديد لهذا الشخص. وقد حدث معي هذا الموقف العجيب حقًّاً أثناء الإعداد لانطلاقة مجلَّة «الغاوون» الشعرية التي كانت بالنسبة إليَّ، في ذلك الوقت، مشروع العمر.

ففي رحلة بحثي بين المطابع البيروتية للاتفاق مع إحداها على طباعة المجلَّة، التقيتُ صاحب إحدى تلك المطابع للتعرُّف إلى الأسعار ونوعية الطباعة وبقية التفاصيل. وعلى عادة أيِّ كاتبٍ قمتُ بإهداء صاحب المطبعة آخر كُتبي الصادرة حديثاً كنوعٍ من التعارف والمودَّة.

لكنَّ صاحب المطبعة نظر إلى هديَّتي باستغراب، بل إنه لم يلمسها! ثم نظر إليَّ، وانفجر في نوبة من الضحك!

كان يضحك ويُشير إلى آلاف الكتب المكدَّسة خارج المكتب، ثم يقول لي باستغراب: «عم تهديني كتاب!»، ويضحك أكثر!

وبشكلٍ أوتوماتيكيٍّ، تخيَّلتُ نفسي أمام بائع خضار وقد قمتُ

بإهدائه باقةً من البقدونس، أو أمام نجّار وقد قمتُ بإهدائه قطعةً من الخشب!

ما أضحكَ مدير المطبعة طبعاً هو أنني أُهديه ورقاً في حين أنَّ لديه أطناناً من الورق. أمَّا محتوى الكتاب فهذا آخر ما يمكن أن يفكِّر فيه.

وقد لاحظتُ حقيقةً أنَّ كثيراً من أصحاب المطابع الذين كنتَ أظنُّ بأنَّ طبيعة عملهم لا بدَّ من أن ترفع من مستواهم الثقافيِّ، هم من فئة الحِرَفيين عديمي الثقافة، ولا يختلفون في شيءٍ عن صنَّاع الحلويات والأحذية.

حتَّى هذه اللحظة، كان قد مضى على نوبة ضحكه حوالى 20 ثانيةً، كنتُ أردُّ عليها بالابتسامات. لكنَّ انهياره التام والدراماتيكي والصادق في ذلك الضحك، ومن دون توقُّف، جعلني أضحك معه، بل ومن كلِّ قلبي!

وتحوَّل المشهد إلى كوميديا خالصة: شخصان يضحكان لسببَيْن متناقضَيْن، فكلٌّ منهما يضحك على غباء الآخر، وكلٌّ منهما مقتنع بـ«وجهة نظر» ضحكه. ولم أعرف في تلك اللحظات، حقيقةً، مَنْ الأغبى بيننا: أنا أم هو؟ ولم أستطع التأكُّد، بسبب استسلامي السريع للضحك، مما إذا كانت نكتتي بالفعل أطرف من نكتته.

لقد كان ما حصل في ذلك اليوم إشارةً رمزيةً، غير ودِّيةٍ، إلى المشروع الثقافيِّ الذي أنا مُقبلٌ عليه.

المكيدة والاعتقال

بدأتُ مع المخرجة الفنِّية التحضيرَ لماكيت العدد الأول من مجلة «الغاوون» الشعرية، وعرض التصوُّرات النهائية والتبويب والصفحتَيْن الأولى والأخيرة. كنَّا نلتقي مرَّةً كلَّ أسبوع بعد الظهر في مكتب الجريدة الكويتية في بيروت، بعد أن يكون الجميع قد غادر وبدأ عملي أنا في تحرير المواد الثقافية الخاصة ببيروت ودمشق وإرسالها إلى القسم الثقافي في الكويت.

والحقيقة أنَّ دوامي بعد الظهر كان يُجنِّبني رؤية المسؤول الإداري والمالي للمكتب، والذي توتَّرت علاقتي به منذ الأيام الأولى حين انتقدتُ الأسعار الخرافية التي تمَّ بها شراء طاولات المكتب وبعض التجهيزات الأخرى.

وعلى الرغم من أني لم أكن ألتقي به إلَّا أوَّل الشهر لاستلام راتبي منه، إلَّا أنَّ مكالمات هاتفية غاضبة كان تحدث بيننا، كلّ أسبوع تقريباً، بسبب العقبات التي بات يضعها في طريقي بانتظام من أجل دفعي إلى ترك العمل. ومن بين تلك العقبات الدسّ عليَّ

عند الإدارة في الكويت بخصوص استكتابي لكتَّاب سوريين زاعماً بأنهم أصدقائي وبأنَّ المسألة مجرَّد «تنفيعة» لهم! والأسوأ من هذا عرقلة دفع الاستحقاقات المالية لهؤلاء، ما وضعني في إحراج كبير معهم، خصوصاً أنَّ بينهم كتَّاباً أتعامل معهم للمرَّة الأولى. وقد سبَّبتْ هذه العقبة الأخيرة مشادَّات معه وصلت إلى درجة تقديم استقالتي ثلاث مرات إلى مدير التحرير الذي كان يُثنيني عنها كلَّ مرَّة بعد وعود قاطعة بتسوية الأمر وتحويل المكافآت من طريق «الويسترن يونيون» إلى الكتَّاب مباشرةً، لأن معظمهم كان لا يملك حساباً بنكياً ليتمَّ التحويل عليه.

كانت أياماً مليئة بالمناكدات والمشاكل، ولكنْ لم يخطر في بالي أن تخبِّئ لي تلك الأيام أيضاً ما يشبه محاولة التصفية عبر تسليمي للسلطات السورية! وكانت الخطَّة بسيطةً للغاية، لكنها من أخطر ما يمكن على حياتي.

فقد كان يعمل في الجريدة صحافيٌّ لبنانيٌّ مرتبط بـ«حزب الله» الذي كان يضعني على قائمته السوداء. وكان هذا الصحافيّ على علاقة جيِّدة بالمسؤول الإداري للمكتب والذي كان يريد إخراجي من العمل بأيِّ طريقةٍ كانت. فتقاطعت مصالحهما عند نقطة التخطيط لاعتقالي وترحيلي إلى سوريا.

كان ذلك الصحافيّ، المستميت لتقديم خدمةٍ للجهة التي يعمل لمصلحتها ألا وهي «حزب الله»، يعرف بأني لكوني معارضاً فإقامتي في لبنان غير شرعية. فأنا أصلاً لم أستطع السفر إلى الكويت لأني لا أملك جواز سفر، وعليه فإنَّ أيَّ مشكلةٍ بسيطةٍ تحصل معي في لبنان وتتدخَّل فيها الشرطة، ستكون كفيلةً بإحالتي على «الأمن العام» وبالتالي ترحيلي إلى سوريا، حيث لا ينتظرني إلَّا السجن والمصير المجهول.

لذلك اتَّفق هذان الشخصان، وكلٌّ لأسبابه الخاصَّة، على الخطَّة التي لو قُدِّر لها أن تنجح لما استطعتُ كتابة حرفٍ واحدٍ من هذا الكتاب.

وصلتُ الساعة الرابعة بعد الظهر إلى المكتب، فإذا بي أجد السكرتيرة ما تزال -على غير عادتها- في المكتب (لتكون شاهدةً ضدِّي في قسم الشرطة).

ووراء طاولتي جلس الصحافي المتواطئ يعبث بكمبيوتري! ثمَّ قال الكلامَ المستفزَّ المُعَدَّ مسبقاً كي أقوم بضربه لطرده من مكتبي. وهذا ما حدث.

وعلى الفور تمَّ الاتصال بالشرطة، التي حضرت بسرعة بسبب قرب المخفر من مكتب الجريدة، وكان طلبها الأوَّل والطبيعي،

بعدما عرفتْ أني لستُ لبنانياً، أوراقَ إقامتي. وحين اكتشفتْ بأنَّ بطاقة إقامتي الموقَّتة مضت سنواتٌ على انتهاء مدَّتها، تقرَّرَ حبسي قبل ترحيلي في اليوم التالي إلى «الأمن العام» الذي -بكلِّ تأكيد- سيُقرِّر تسليمي لسلطات بلدي (سوريا) تماماً كما اقتضت الخطَّة، خصوصاً أن رئيس جهاز «الأمن العام» معيَّن من قبل «حزب الله». ولم تنفعني ورقة اللجوء بشيءٍ، بل إنها عقَّدت الموقف.

***

كان الضابط المناوب في قسم الشرطة لطيفاً جداً معي، خصوصاً بعدما عرف اسمي، حيث أنه كان -لحسن حظِّي- ممن يقرأون الصحف. لكنه أخبرني بأنه مُلزَم بتطبيق القانون وإيداعي السجن حتَّى الصباح، ثم إحالتي على «الأمن العام». وأقصى خدمة قدَّمها لي كانت السماح بإجراء الاتصالات بأصدقائي ومعارفي من إعلاميين وسياسيين للتدخُّل لدى الحكومة اللبنانية وإنقاذي من مصير أسود ينتظرني على مسافة ليلة واحدة فقط.

أدخلوني السجن، أو بالأحرى القاووش، وأغلقوا الباب بعدما أعطوني بطَّانيتَيْن. كانت رائحة البول المنبعثة من فراش الإسفنج الذي جلستُ عليه مُدوِّخةً. لكنَّ الحديث الذي بدأتُ به مع الفتى الوحيد المسجون معي أنساني قذارة الرائحة. فقد أخبرني بأنه هنا

لأنه طعنَ خاله بالسكِّين، والسبب أنَّ خاله نعتَه بـ«الحمار»! وحين سألته إذا ما كان قد سبق له دخول السجن قبل هذه المرَّة؟ أجاب بالنفي. لكنَّ كذبته هذه لم تصمد لأكثر من ثلاث دقائق، حين راح يشرح لي الفارق بين هذا القاووش والقاووش في منطقة أخرى!

إذْ ذاك تجاهلته تماماً، ولم أعد أُكلِّمه بعدما أحسستُ بميوله الإجرامية الحقيقية من خلال حديثه عن رغبات انتقامية في قتل فلان وفلان، بعد خروجه من السجن، لأسباب غاية في التفاهة.

طلبتُ قلماً وبضع أوراق من صديقي كمال الذي جاء لزيارتي مصدوماً من فكرة أنني على وشك الوقوع في قبضة السلطات السورية.

الفتى نائم، والجميع قد غادر، وحتى الحرس لم يعد يُسمَع لهم أيُّ صوت. وأنا بدأتُ الكتابة إلى زوجتي التي أصابها الجنون في ذلك اليوم بعدما اتصل بها شخص مجهول (هو الصحافي نفسه كما تأكَّدنا لاحقاً) وقال لها إنني على وشك الترحيل إلى سوريا:

«إذا استطعتِ قراءة ما سأكتبه الآن فمعنى ذلك أنني سأكون في مكان آخر لا أعرف متى أعود منه. لكني سأعود بالتأكيد. ثقي بذلك. لأنَّ مَن كانت حياته معقَّدةً بهذا الشكل لا يمكن أن تكون نهايته بسيطةً وساذجةً بهذا الشكل...».

حبَّرتُ خمس صفحات، في تدفُّق عجيب للأفكار والمشاعر في آنٍ واحد. ولولا أنَّ القلم كان من النوع الرديء فصار يُقطِّع لما توقَّفت تلك الليلة عن الكتابة.

لم أستطع النوم إطلاقاً، فبقيتُ يقظاً حتى الصباح، حين فاحت رائحة البنِّ من المطبخ الملاصق للقاووش وانطلقت همهمات العساكر. ولم تكد الساعة تبلغ العاشرة صباحاً حتَّى كانت تحرُّكات الأصدقاء قد نجحتْ في إنقاذي من الترحيل إلى «الأمن العام»، فأُطلق سراحي وأُعطيتُ مهلة عشرين يوماً لتسوية مشكلة إقامتي.

***

كان للحرِّية طعم الحبِّ الأول ذلك الصباح. لم أفكِّر بركوب التاكسي لأنَّني كنت غير قادر على الجلوس في مقعدٍ ضيِّق من شدَّة سعادتي. ركضتُ كالمجنون من شارع إلى آخر، متذكِّراً حكايات القرية عن الموتى الذين عادوا من موتهم. عانقتُ الجميع، وفقدتُ التركيز والقدرة على العمل طوال اليوم. وشرعتُ في اليوم التالي بتسوية وضعي في لبنان بين وزارة العمل و«الأمن العام»، وقد كلَّفتني هذه التسوية أكثر من خمسة آلاف دولار كمستحقَّات وغرامات عن سنوات الإقامة غير الشرعية، وقد اضطررتُ لاقتطاع هذا المبلغ من

المال الذي رصدتُه لانطلاقة المجلة الشعرية. مع ذلك كنت سعيداً بنجاتي وبفكرة أنَّ إقامتي ستغدو شرعيةً، ولن أُضطرَّ بعد اليوم إلى تجنُّب الشرطة و... المشاكل.

***

لكنَّ الفرحة لم تدم سوى العشرين يوماً التي أُعطيت لي كمهلةٍ، حيث كانت في انتظاري مكيدةٌ أخرى، وهذه المرَّة من قبل «حزب الله» نفسه الذي رأى في وضعي غير القانوني فرصةً للتخلُّص منِّي، ومن مقالاتي المعادية له، بلا ضجيج إعلاميٍّ، وبشكلٍ قانونيٍّ أيضاً.

فقد اتصل بي المخفر طالباً منِّي الحضور لتجديد المهلة ريثما أنتهي بشكل كامل من تسوية وضعي. ولم أتأخَّر في المجيء لتوقيع الطلب، لكني فوجئتُ فور وصولي بإلقاء القبض عليَّ وزجِّي في السجن مجدَّداً ريثما يتم ترحيلي إلى سجن «الأمن العام» في اليوم التالي، بذريعة أن الأمر خرج من يدهم!

وبات مؤكَّداً لديَّ أنه تمَّ استخدام هذه الحيلة الخاطفة كي لا أُعطى أيَّ فرصةٍ للتواصل مع أيِّ جهة نافذة تستطيع إنقاذي، كما حصل في المرَّة الأولى. والدليل على ذلك أنه لم يُسمَح لي بإجراء أيِّ اتصال، بل تمَّ احتجاز موبايلي وإقفاله، والتشديد على الحرس بعدم السماح لي بإجراء أيِّ اتصال.

وزاد من حجم مأزقي أنَّ عملية التوقيف تمَّت بعد انتهاء الدوام، أي أنَّ أحداً من رفاقي في العمل لن يعرف بما حصل لي إلَّا في اليوم التالي حين أكون قد وصلتُ إلى سجن «الأمن العام» وباتت مهمَّة تخليصي أكثر صعوبة بما لا يُقاس. كما أنني –في غياب زوجتي– أعيش وحيداً في المنزل، ولا أمل لديَّ في أن يعرف أحدٌ بما حصل لي قبل فوات الأوان.

لم يكن ثمَّة أيُّ سجين آخر في القاووش، وقد شعرتُ فيه بالوحشة أكثر بكثيرٍ من المرَّة الفائتة. شعرتُ بأنه ليس سجناً ضيِّقاً وعابراً، بل صورة تقريبية لحياتي الضيِّقة والعابرة. أحسستُ بأنني جدارٌ لخربشات القَدَر التافهة، تماماً كهذه الجدران المليئة بخربشات سجناء مرّوا قبلي.

لم أطلب ورقةً وقلماً كالمرَّة السابقة، ليس لأنَّ طلبي سيُقابل بالرفض فحسب، بل لأنه لم تكن لديَّ رغبة في تدوين شيء أيضاً، بعدما أحسستُ بعبثيَّة ما أنا مُقبل عليه من حياةٍ مجهولةٍ.

***

من النافذة الصغيرة المقطَّعة ببضعة قضبان حديدية، رحتُ أراقب الحارس وهو يدخل ويخرج إلى المطبخ لصنع الشاي، علَّني أجد الطريقة المناسبة لفتح حديثٍ إنسانيٍّ معه أتسلَّل عبره إلى طلبي

العاجل والمحظور: إجراء اتصال.

كان الحارس يستعمل، لحمل الإبريق الساخن، قطعةَ قماش حمراء لمَّاعة اكتشفتُ -بعد إمعان النظر فيها- بأنها قبَّعة حمراء من الطراز الذي يضعه بابا نويل على رأسه. إذَّاك فاجأتُه بسؤال ممازح عمَّا إذا كان بابا نويل سجيناً لديهم أيضاً؟

لكنه -وربما لأنه بُوغتَ بصوتي القادم من شبَّاك القاووش- لم يفهم النكتة. فأعدتُ عليه ما قلتُه مع تنبيهه إلى القبَّعة الحمراء التي يستعملها لرفع الإبريق عن النار، ففهم المعنى وضحك ضحكةً قصيرةً جداً. ثم علَّق قائلاً إنَّ بابا نويل لا يستحقّ السجن ولا يستحقّ إلا كلّ خير لأنه كريم جداً.

ولأني كنتُ حريصاً على عدم إفلات خيط الحديث الذي بدأتُه معه قمتُ بسؤاله سؤالاً غريباً عمَّا إذا كان بابا نويل قد زاره في طفولته؟ فأجاب بالنفي بطريقة أقرب إلى الخجل. فقلتُ له بأنني أيضاً لم أرَ وجهه في طفولتي لأنه غير معنيّ إلَّا بالأطفال الذين يستطيع آباؤهم أن يدفعوا له ثمن هداياه.

ثمَّ -وكأنَّ موضوعي قد تحوَّل فعلاً إلى محاولة ثأر لطفولتي الفقيرة- قلتُ له بحرقةٍ غير مصطنعة: «صحيح أنَّ بابا نويل كريم، ولكنه غير عادل».

ثمن سيجارة

رُحِّلتُ مخفوراً إلى سجن «الأمن العام» صباح اليوم التالي في سيَّارة عسكرية بحراسة ثلاثة عناصر، لكني مع ذلك كنتُ قد استعدتُ بعض الطمأنينة إثر الاتصالات التي أجريتُها مع الأصدقاء للحؤول دون تسليمي للسلطات السورية، بعدما تعاطف معي الحارس وسمح لي، سرَّاً، باستعمال الهاتف، بل وضيَّفني فنجان شاي من الإبريق الذي استعملَ لحمله قبَّعةَ بابا نويل الحمراء.

كان سجن «الأمن العام» يتألَّف من ممرٍّ مرصوف عن شماله بسبع أو ثماني زنازين صغيرة إلى أن ينتهي بزنزانةٍ كبيرةٍ لا يوجد فيها أحد بسبب رطوبتها العالية ووجود بقعة ماء كبيرة في وسطها. وكان السجناء قد حشروا أنفسهم في الزنازين الصغيرة المفتوحة الأبواب على الممرّ.

وككلِّ السجون في العالم ما إن تطأ قدمُ وافدٍ جديدٍ أرضَ السجن حتى يبدأ السجناء باستجوابه عن سبب حبسه وعن أصله وفصله وحكايته.

وقد منعني وجود موقوفين سوريين في الزنزانة الأولى التي دخلتها من قول الحقيقة في مسألة سجني، لأنه لم تكن لديَّ الطاقة الكافية لفتح حديث سياسيّ معهم حول الوضع في سوريا ربما ينتهي بالعراك أو البغضاء، خصوصاً أنَّ لي تجارب عديدة مع عمَّال سوريين في لبنان مؤيِّدين للنظام بشكل أعمى.

لذلك قلتُ لهم بأنها مسألة شجار وضرب بالأيدي. وما كدتُ أنتهي من قول ذلك حتى قام أحدهم بتقديم سيجارة لي طالباً منِّي أن أرويَ الحكاية بالتفصيل.

مضت الساعات الأولى عابثةً مرحةً، مليئة بـ«الخَرْط» والبطولات الفكاهية التي رحتُ أختلقُها كُرمى للسيجارة الطيِّبة التي قُدِّمت لي، وكطريقة لتزجية الوقت بالخفَّة والهزل.

لكنَّ هذا الانبساط المصطنع لم يدم طويلاً، حيث أتى عسكريٌّ متجهِّم الملامح وبدأ بأخذ بصماتنا والتقاط صور فردية لنا مع لوح صغير مكتوب عليه الرقم الخاص بكلِّ سجين. كان خشناً جداً في التعامل مع السجناء وبذيء اللسان، على الرغم من أنَّ أحداً لم يُظهر أيَّ مقاومةٍ لأيِّ أمرٍ كان يطلبه.

وبدون أيِّ سبب واضح -سوى السادية أو الرغبة ببثِّ الرعب في نفوسنا- انهال بالضرب على سجينٍ أخطأ فمدَّ يده اليمنى حين

طلب منه اليد اليسرى لأخذ البصمات! كان واضحاً أنه يتقصَّد الإهانة والاستفزاز حتى إذا أبدى أحدهم أيَّ اعتراضٍ أشبعه ضرباً ولَكْماً.

أصابني الغمُّ وأنا أفكِّر بأنه ربما يقوم بشتمي فأقوم -بسبب طبيعتي الانفعالية- بالردِّ عليه فتتطوَّر المسألة إلى عراك حقيقي، فتتعقَّد الجهود التي يبذلها الأصدقاء في الخارج من أجل تخليصي من محنتي هذه.

راقبتُ حركات السجين الذي قبلي كي أحفظ ما يجب عليَّ القيام به بأكبر قدرٍ من السلاسة كي لا أُتيح لهذا العسكري الساديّ أيَّ حجَّة لإهانتي. ثمَّ قمتُ بخلع معطفي وساعتي لأنهما غاليا الثمن تجنُّباً لاستفزاز أيِّ شعورٍ طبقيٍّ كامن في نفس هذا الشخص الحقود. لكني سرعان ما عاودتُ ارتداءهما بعدما قلَّبتُ في رأسي طبيعةَ العسكر ورجال الشرطة في بلادنا حيث إنهم يتجنَّبون، عادةً، التحرُّشَ بمن تظهر عليهم مظاهر النعمة خوفاً من أن يكونوا أصحاب نفوذ يستطيعون إيذاءهم من خلاله.

والحقيقة أنَّ هذه «اللعبة» المخزية كنتُ قد اضطررتُ إلى لعبِ أُخرى شبيهةٍ بها، غير مرَّةٍ، قبل حوالى خمس سنوات من حبسي هنا، لإنقاذ حياة أخي الصغير.

والآن ريثما يُنادى على اسمي، سأستعيد ما جرى معي في ذلك اليوم.

صحافي في جريدة «الثورة»!

في منتصف العام 2003 كنَّا، أنا وأخي الصغير، نقيم في غرفة واطئة السقف تحت درج إحدى البنايات في لبنان.

الإيجار المنخفض، ومدخولي الضئيل من الصحافة حيث كنتُ ما أزال في بداياتي، والسكن في مكان بعيد عن أعين المخابرات حيث كان النظام السوري في أوج حضوره في لبنان وأجهزته الأمنية تبحث عني... كلُّها أسبابٌ أجبرتني على اختيار هذا المكان المظلم والرطب للسكن.

لم أكن أعرف من سكَّان البناية التي تتألَّف من ثلاثة طوابق سوى المؤجِّر الذي يزورني مطلع كلِّ شهر لتقاضي الأجرة، وقد حرصتُ على تزوير كنيتي أمامه، وهو أصلاً لم يطلب رؤية بطاقتي الشخصية على اعتبار أني كسائر العمَّال السوريين الذين سبق أن استأجروا الغرفة، وأنا ما كنتُ لأقدِّمها له لو طلبها.

وفي مساء أحد الأيام، حين كنت مُنكبَّاً على إنهاء مقالة مستعجلة يجب أن أُسلِّمها في اليوم التالي، وكان أخي الصغير

نائماً، عَلَتِ الضجَّة والموسيقى من الطابق الأخير بشكل لا يُحتمل. مضت الساعة الأولى وأنا أنتظر انتهاء الصخب كي أُعاود العمل على المقالة لكنْ دون جدوى. إذّاك خرجتُ إلى باب البناية ونظرتُ إلى أعلى فوجدتُ تجمُّعاً كبيراً لشبابٍ يرقصون ويُهيِّصون. فناديتُ بتهذيبٍ -إنما بصوت عالٍ كي يسمعوني- على الشباب الموجودين في الشرفة طالباً منهم تخفيض صوت الستريو... فإذ بأحدهم يبادر إلى الاستهزاء بي وبطلبي، ويؤيِّده الآخرون بالضحك والقهقهة.

لكنْ كي نفهم سبب هذا الردِّ المهين على طلب مؤدَّب، لا بدَّ من التذكير بالجوِّ المتشنِّج في لبنان آنذاك ضدَّ الوجود السوريِّ، وحالة الحنق التي تسود أوساط الكثير من اللبنانيين، بسبب ممارسات الأجهزة الأمنية السورية في بلدهم، والتي عاثت فيه فساداً ونهباً وترهيباً للناس.

لذلك كان طلب أحد السوريين -الذي هو أنا- من لبنانيين يرقصون في عُرس ابن صاحب البناية -كما اكتشفتُ لاحقاً- تخفيضَ صوت الستريو... شكلاً من أشكال التسلُّط والفوقيَّة.

ولم أكد أفتح فمي للردِّ عليهم، حتى كان أخي الصغير قد قام من فراشه غير واعٍ تماماً وركض إليَّ وهو يتوعَّدهم بصوتٍ عالٍ ظانَّاً بأنهم قد شتموني! لكنه سرعان ما استوعب حجم الكارثة

التي أوقعنا بها حين رأى عشرات الشبَّان يهرعون نازلين الدرج للانتقام منه، فركض إلى الغرفة ثمَّ إلى المطبخ المظلم الذي لا يمكنك أن ترى فيه شيئاً إن لم تُشعل ضوء الإنارة لأنه بلا أيِّ شبَّاك أو حتى طاقة صغيرة.

عُرْسٌ كاملٌ كان في الطابق الثالث، وبات الآن في غرفتنا الصغيرة ومطبخنا المظلم وخارجهما لمن لم تتَّسع له الغرفة والمطبخ. أصوات الضرب والشتائم أصابتني بحالةٍ من الجنون وأنا أفكر بمصير أخي بين أيديهم. لذلك صرختُ بهم بأعلى صوت: «أنا مراسل جريدة الثورة... ورح فرجيكن (بمعنى: الويل لكم)»!

وعلى الفور بدأ الرتل الأخير من الشبان بالانسحاب، ووراح آخرون يوشوشون رفاقهم منسحبين حتى لم يبقَ أحد سوى رجل ستينيّ -كان أكبر المحرِّضين للشبَّان من خلال صراخه ووعيده- أقبل عليَّ مبتسماً متودِّداً وهو يقول: «أهلا وسهلا فيك وبجريدة البعث» (مع أنني قلت لهم: جريدة «الثورة»)!

لم أردّ عليه، بل هرعتُ إلى المطبخ لأتفقَّد أخي وما حلَّ به. أضأتُ نور المطبخ المظلم، فوجدتُه واقفاً يلهث، ظهره إلى الزاوية، متحفِّزاً بوضعية الملاكم، مُقطَّع القميص الذي تخلَّلته بقعٌ من الدم. لم أُصدِّق أنه كان حيَّاً، فاحتضنته وناديتُه بـ«البطل». دخل الرجل

الستينيّ ومعه شابّ يحمل في يده هاتفاً محمولاً خاطبني بلقب «أستاذ» طالباً مني الردّ على المتصل. أخذتُ الهاتف فإذا بالمتصل ضابطٌ من فرع في إحدى المناطق القريبة (لم يُخبرني عن اسمه أو عن اختصاص الفرع الذي يعمل فيه ربما لأنه اعتقد بأنني خبير في شؤون الفروع الأمنية!) ورجاني بكلِّ تهذيبٍ أن «أُلفلف» المسألة.

أقفلتُ الهاتف قبل إتمام الاتصال كي لا أتورَّط معه في حديثٍ يفضح حقيقتي، و«لفلفتُ» المسألة طبعاً، وتبادلنا الاعتذار أنا والرجل الستينيّ، بل وصعدتُ إلى الطابق الثالث وهنَّأتُ العريس الذي كان في طليعة المهاجمين، وأكَّدتُ له بأنني لم أكن أعرف بوجود عُرسٍ.

وما إن بزغ أوَّل الفجر حتى غادرتُ أنا وأخي المنطقة قبل افتضاح أمرنا، إلى منطقة أخرى لا يعرفنا فيها أحد، ولا نعرف فيها أحداً.

لقد كانت هذه الحادثة نموذجاً فذّاً لسوء الفهم الذي يملأ حياة أناس تحكمهم أجهزة المخابرات. فأنا وهؤلاء لنا عدوٌّ مشترك هو المخابرات السورية. مع ذلك أهانوني لأني -كسوريٍّ- أُمثِّل النظام المخابراتيّ. وأنا من جهتي أخفيتُ عنهم هُويَّتي، كمعارض، خوفاً من أن يكونوا موالين للنظام السوري فيُسهِّلوا عملية القبض عليَّ.

لكني حين أردتُ إنقاذ نفسي وأخي من بين أيديهم لم أجد بدًّاً من التماهي مع الصورة النمطية المرسومة لي كسوريٍّ في أذهانهم: عنصر مخابرات!

فكَّرتُ يومذاك في معنى أن يكون لفظُ جملة «صحافي في جريدة سوريَّة» مرعباً إلى هذه الدرجة! فكَّرت في معنى أن يكون اسم صحيفة كـ«الثورة» أو «البعث» مخيفاً كاسم أيِّ فرعٍ من فروع المخابرات! وتذكَّرتُ المعلومة التي واظب التلفزيون السوري -بلا سببٍ مفهوم- على تكرارها، وهي أنَّ البطاقة المهنيَّة الوحيدة التي حصل عليها حافظ الأسد بعد وصوله إلى الرئاسة هي بطاقة الصحافة!

***

... نادى العسكريُّ الساديُّ على اسمي، فتقدَّمتُ إليه وأنا أُزرِّرُ، بلامبالاةٍ مقصودةٍ، أزرار معطفي، مُظهراً أكبر قدر من الاعتزاز بالنفس بشكلٍ أقرب ما يكون إلى الاستعراض.

وبكلِّ هدوءٍ أخذ بصمات أصابعي، والتقط لي صورةً وأنا أحمل لوحاً كُتِبَ عليه رقمي في السجن، ثمَّ قال لي بما يشبه الامتنان: «شكراً»!

رجل مخابرات مزيَّف

ذكَّرني هذا العسكريُّ الاستفزازيُّ والمتعجرف بحادثةٍ جرت معي في التسعينيات في كراج البرامكة بدمشق.

فبينما كنت جالساً في مقعدي بالبولمان أنتظر انطلاقه في رحلته الطويلة إلى مدينة الشدَّادي، صعد شابٌّ يرتدي بدلة رسمية سوداء ونظارات كبيرة سوداء ويحمل في يده حقيبة جلدية صغيرة، وجريدة. كان منظره وحركاته المتبرِّمة يُوحيان بأنه إمَّا مسؤول في الدولة وإمَّا رجل مخابرات.

وقبل أن يجلس في مقعده أوَّل البولمان، نَهَرَ الشابَّ الذي يُقاسمه المقعد بحسب رقم التذكرة وأمرَهُ بأن يُخليَ كرسيَّه ويذهب للجلوس في الخلف! وبكلِّ إذعانٍ، قام الراكب وذهب ليجلس في الصفِّ الأخير.

التفتَ الرجل المتعجرف إلينا بما يشبه الاحتقار -نحن الركَّاب الذين بتنا شبه متأكِّدين من أنه رجل مخابرات- ثمَّ نظر إلى ساعته متأفِّفاً، وجلس يقرأ الجريدة.

ولم تمضِ دقيقة واحدة على جلوسه حتى وقف كالمجنون متصنِّعاً الغضب وهو يصيح بنا: «ريحة بشعة... ريحة بشعة... ريحة جرابات»!!

لقد كانت لحظةَ إهانةٍ جماعيةٍ لنا وهو يتَّهمنا بهذه التهمة الغرائبية والاستفزازية. والأنكى من ذلك أنه راح ينظر إلى أرجل بعضنا وكأنه بذلك سيُحدِّد فعلاً الجوارب ذات الرائحة الكريهة والمزعومة!

انتظرتُ أن يتشجَّع أحد الركاب فيردّ عليه، فأقوم عندئذ بمساندته والتحريض ضدَّه، لكنَّ شعور الركَّاب بأنَّ هذا الشخص عنصر مخابرات منعهم من الردِّ عليه ولو بكلمةٍ.

وتمادى هذا الشاب في إهانتنا وهو يقول لنا: «وَسْخين»! فنهضتُ عن مقعدي وأنا أمورُ غضباً وقلت له: «أنت الوسخ... وجراباتنا أنظف من شاربك».

جنَّ جنونه، وصارت حركاته الغاضبة أقرب إلى التهريج، وهو يتوعَّدني ويشتمني لكن من دون أن يتقدَّم نحوي ولو بخطوة واحدة. وما زاد الطين بلَّةً بالنسبة إليه -وإليَّ طبعاً- أنَّ أحداً لم يبادر إلى الوقوف بيننا لمنع العراك وتهدئة الخواطر، وكأنَّ الركَّاب كانوا يريدون فعلاً أن يحدث مثل هذا العراك فأنتقم لهم منه.

لذلك لم يكن أمامه إلَّا أن يغادر البولمان بما يوحي بأنه ذاهب لإجراء اتصالاته الخاصَّة.

في تلك الدقائق التي فصلتْ بين مغادرته وعودته لامَني أحدُ الركَّاب من باب أنَّ عاقلاً لا «يَعْلَق» مع المخابرات، لكنَّ شخصاً آخر قاطعه وأثنى عليَّ وشجَّعني.

مضتْ بضع دقائق تحضَّرتُ فيها نفسياً لفكرة أنَّ عناصر المخابرات آتون ليعتقلوني على مرأى من جميع الركَّاب، لكنَّ المفاجأة كانت أنه قد عاد وحيداً وجلس في مقعده، بل ومن دون أن ينظر إليَّ!

وبعد قليل انطلق البولمان، وسرعان ما سرى بين الركَّاب شعورٌ أكيدٌ بأنَّ هذا الشخص دعيٌّ ومنتحلُ صفةٍ لا علاقة له بالمخابرات لا من قريب ولا من بعيد!

نهض الشابُّ الذي أثنى عليَّ وتوجَّه نحوه، وإذا بثلاثةٍ آخرين يتبعونه، وتبعتهم بدوري. أمسك به من ربطة عنقه وأفرغ في وجهه جميع الشتائم التي حفظها منذ طفولته وحتى تلك الساعة. وتزاحم الآخرون على إهانته وشدِّه من ثيابه وأذنَيه، وهو يتوسَّلنا ويقول لنا بأننا قد فهمناه خطأً!

الزمن الكثيف في السجن

زمن السجن يختلف عن الزمن العادي. إنه زمنٌ كثيفٌ لأنه خليطٌ من أزمنة متعاقبة. السجناء السابقون والذين لا تعرف عنهم شيئاً حاضرون في كلِّ شيء. ليست فقط الخربشات هي ما تُذكِّرك بهم، بل هواء السجن الفاسد من قلَّة التهوئة، والذي يجعلك تفكِّر بأنه ليس هواءً حقيقياً بل مجرَّد أنفاس سجناء سابقين.

وعلى العكس مما يتوهَّم الكثيرون، ألمُ السجن لا ينبع من توقُّف الزمن، بل من مروره. فمنذ أن يولد الإنسان يشعر غريزياً بأنه في رحلة يمشيها وتنتهي بموته. السجن يأتي ليتلاعب بهذه الحتميَّة. ولأنَّ الحياة بالنسبة إلى الإنسان رحلة مشي، فالسجين يتألم لشعوره بأنه لن يرى الآخرين بعد اليوم، لأنهم ماضون في مشيهم بينما هو واقف في مكانه. وهكذا لا يبقى السجن مكاناً ثابتاً، بل يتحوَّل إلى مكانٍ بعيدٍ لأنَّ الآخرين يبتعدون في سيرهم.

هذا الاختلال واللعب بمجرى الحياة الطبيعي يجعل الغريزة تنتفض في داخل الإنسان. السجن في هذا المعنى خطيرٌ لأنه يلعب

بمجرى الحياة ويعبث به. يحجز تدفُّقه الطبيعيّ. لذلك يشعر السجين بالاختناق، وبأنه على وشك الانفجار.

لقد اختبرتُ هذا الشعور بنفسي سنة 1999 عندما سُجنت للمرَّة الأولى في حياتي. كان ردُّ فعلي الأول جسدياً (التقيُّؤ) حيث شعرتُ بأن أحداً ما عبث بجسمي من الداخل، عبث بالنِّسَب والخلايا والهرمونات. الشعور الأول في السجن هو الشعور بخللٍ ما يبدأ في الجسم قبل أن يستقرَّ في الروح. يبدأ بضيق نَفَس وينتهي بحالة اكتئاب.

أما في تجارب السجن اللاحقة، ومنها التي أنا فيها الآن، فقد تجاوزتُ ردَّ الفعل الجسدي، وصار التعبير الوحيد لديَّ عن السجن هو الكآبة، وكأنما صارت الوظيفة الوحيدة لجسدي في السجن هو أن يكون مجرَّد ممرٍّ لعبور الكآبة إلى الروح.

أفكارٌ كثيرةٌ راودتني عن معنى السجن ليتني دوَّنتها يومذاك، لكني عوضاً عن ذلك ذهبتُ إلى الزنزانة الكبيرة والتي لا يوجد فيها أحدٌ بسبب بركة الماء في وسطها وحفرتُ على أحد جدرانها، برأس حصاة صغيرة، اسمي الأول وسط عشرات الأسماء والحكم والمأثورات التي كتبها سجناء سابقون.

***

في اليوم التالي وصل مجنَّدٌ بثيابه العسكرية وأُودع معنا في السجن. ثارت حميَّة أحد السجناء اللبنانيين فقال له بما يشبه التوبيخ: «ممنوع أن تُسجَن وأنت في ثيابك العسكرية... هذه إهانة للجيش»! كان غضبه ممسرحاً واستعراضياً لكي يقول لنا بأنه يفهم في القوانين، وبأنه مواطن حريص على القواعد واللياقات.

سألنا الجنديَّ السجينَ عن سبب سجنه معنا، فقال: مشاجرة، ثم قال لأنه أضاع بندقيته، ثم عاد وقال: سرقة سيَّارة! ثم أكَّد أنه بريء، لكنَّ باله مشغول من أن تستغلَّ خطيبته سجنه فتخلع خاتم الخطوبة وترتبط بغيره. كان اسمه محمود. س، وهو بحسب زعمه أحد الذين شاهدوا بأمِّ عينهم ضحايا الجريمة التي ارتكبها عناصر «فتح الإسلام» بالجنود اللبنانيين الأربعة حيث عمدوا إلى قطع رؤوسهم والتمثيل بجثثهم، وقد أدَّت هذه الجريمة إلى ما بات يُعرَف بحرب مخيَّم نهر البارد سنة 2007.

قدَّم محمود. س وصفاً مرعباً لرؤوس الجنود المقطوعة. قال بأنَّ تلك الرؤوس كانت بلا أعين حيث جرى استئصالها بأدوات حادَّة. وبأنَّ مكان كلِّ عينٍ كانت هناك حفرة مليئة بالدم. وبأنه حين حمل أول رأس أحسَّ بأنه يحمل صينيَّة عليها كوبا شاي لا بدَّ أن يوازنها بين يدَيْه كي لا يندلق الشاي: «كان مكان عيونهن حفر مليانة دم.

كان الراس متل صينية عليها كوبيات شاي، صرت وازن الراس بين إيديي حتى ما يكبكبوا دم»!

شغلَ هذا الوصف جزءاً من تفكيري ذلك اليوم، وألهاني موقَّتاً عن الحالة المزرية التي أنا فيها.

***

مضتْ بضعة أيام حتَّى نادى عسكريٌّ على اسمي كي أخرج: «عندك زيارة». كانت زيارة من أحد الأصدقاء الذين يتابعون بشكل مباشر نتائج الاتصالات التي تتمُّ مع بعض السياسيين اللبنانيين من أجل منع ترحيلي إلى سوريا، وقد حمل إليَّ نبأ سارًّاً مفاده أنه سيُطلق سراحي عند الخامسة عصراً.

لكنَّ الخامسة مرَّت وحلَّ الليل ولم يُفرَج عني.

***

كان من بين السجناء شابٌّ خليجيٌّ ينتظر الترحيل إلى بلاده بفارغ الصبر، لأنَّ السجن في بلده -كما قال- «فندق خمس نجوم». كانت تهمته النصب والاحتيال بمبلغ خمسة ملايين دولار! وكان يقول ذلك ضاحكاً دون أدنى شعور بالخجل، مردفاً كلامه بالقول إنه أوَّل خليجيٍّ يستطيع النصب على لبنانيٍّ!

كان أيضاً معنا فتىً بدين وضخم ذكَّرني بالفتى الذي التقيتُه

في قاووش المخفر الذي اعتُقلتُ فيه، لكنه كان أكثر براءة وخفَّة دم. وقد كان موضع سخرية من الجميع في السجن لأن تهمته كانت سرقة أبيه! حيث قام هذا الفتى بجمع رفاقه واستئجار شاحنة ذهبوا بها ليلاً إلى مستودعات أبيه -وهو أحد تجَّار سوق مار الياس البيروتي- وحمَّلوها بكل أصناف المعلَّبات والسلع الأخرى أملاً ببيعها بنصف ثمنها في سوق صبرا الشعبيّ.

كان جسد الفتى المسكين مليئاً بآثار الضرب المبرح، ومعصماه قد تقيَّحا من آثار ربطه بالسقف أثناء التحقيق. والغريب أنَّ كل هذا الضرب تمَّ بتوصيةٍ خاصَّةٍ من أبيه كما أكَّد لنا هذا الفتى اللصّ مراراً.

في الصباح عاد العسكريُّ لينادي على اسمي قائلاً: «عندك زيارة». وكان في انتظاري الصديق نفسه الذي أكَّد لي مجدَّداً أنه سيتمُّ إطلاق سراحي اليوم في الساعة الخامسة، بعدما شرح لي طبيعة العراقيل التي يضعها «حزب الله» صاحب النفوذ الكبير في جهاز «الأمن العام» في لبنان.

وبالفعل أُطلق سراحي عصر ذلك اليوم، وقبل الخامسة بأكثر من ساعة ونصف الساعة. وذهبتُ لاستلام أغراضي الشخصية التي بينها حزامي الجلدي الذي تمَّ تخليصي منه قبل إيداعي السجن،

وهذا أمر يسري على كلِّ سجينٍ خوفاً من أن يستعمله في الانتحار شنقاً.

***

وأنا أستقلُّ التاكسي في طريق عودتي إلى البيت، وبدلاً من الشعور بالفرح العارم، ضربتني الكآبة وأنا أتذكَّر اسمي الذي حفرتُه على جدار السجن، وكأنني حكمتُ عليه بالبقاء سجيناً هناك... إلى الأبد.

سردين بطعمِ لحمِ إنسانٍ

كان يوماً كريهاً أمضيتُه مهرولاً بين الدوائر الحكومية اللبنانية لتسوية أوضاعي من أجل الحصول على إقامةٍ، وتالياً التخلُّص من كابوس تسليمي إلى السلطات السورية لدى حدوث أيِّ مشكلةٍ.

وأنا خارج من مبنى وزارة العمل، متفقِّداً التواقيع والأختام على الأوراق، بزغتْ بقعةٌ خضراء مفاجئة على الورقة التي أقرأ فيها... إنها ذَرْقة طائر! نظرتُ إلى أعلى، فإذا ببضعة طيور متوسِّطة الأحجام لا أعرف اسمها، أحدها ذَرَقَ على الورقة التي بين يديَّ. أعدتُ النظر في الورقة وقلت في نفسي ساخراً: هذا ختمٌ طبيعيٌّ!

وككلِّ الأيام الكريهة، لم يمضِ ذلك اليوم بلا منغِّصات إضافية، حيث التقيتُ بالمصادفة شخصاً أعرفه قبل سنوات، فأوصل إليَّ خبراً سيِّئاً مفاده أنَّ زوج خالتي قُطعتْ أصابع إحدى يدَيْه وهو يحاول إصلاح ماكينة قصّ العشب حيث يعمل ناطوراً في مدينة عاليهْ بجبل لبنان.

ليس لدى زوج خالتي هاتف كي أتصل به، لذلك عليَّ الآن

الذهاب إلى مكان عمله بمدينة عاليهْ لتهنئته بالسلامة على الرغم من أنَّ الحادثة مضى عليها بعض الوقت. فثمَّة علاقة وثيقة تربطني بهذا الرجل نشأتْ خلال إقامتي عنده في المبنى الذي يقوم بحراسته، حيث كنت آخذ دوره كحارس -بلا أجر- خلال إجازاته التي يُمضيها في قريتنا عند عائلته، وحين يعود كنت أذهب إلى بيروت لاستئجار غرفة بائسة في مخيَّم برج البراجنة -في حال وُفِّقتُ بإيجاد عملٍ بالفاعل- أو للتشرُّد في الشوارع والشواطئ وورش البناء المهجورة.

لم أخرج من بيروت طوال السنتَيْن الأخيرتَيْن إلا نادراً. حتى عاليهْ، التي كانت إحدى أهمّ المحطَّات في مرحلة البؤس الشخصيّ، لم أزرْها منذ سنوات.

***

في طريقي إلى زيارة زوج خالتي في مدينة عاليهْ، قبل الوصول إلى جسر الكولا حيث محطَّة انطلاق الباصات، طلب منِّي سائق التاكسي بلطف النزول قبل «محطة الزهيري» ببضعة أمتار، بحجَّة أنَّ معه راكباً يريد الذهاب إلى «مول سبينيس». لم أتذمَّر من هذا الطلب، بل على العكس وجدتُه فرصةً لمعاينة المقعد الذي نمتُ عليه لياليَ عديدةً أيام التشرُّد. هذا المقعد الذي أفهمني باكراً كيف

يمكن لألم الإنسان أن يكون سبباً للضحك والتندُّر.

ففي أوَّل أيَّام تشرُّدي في بيروت، قرَّرتُ أن أنام على أحد المقاعد الحديدية في محطَّة السيَّارات الواقعة عند جسر الكولا. لكنَّ مشكلةً لا تخطر في بال أحدٍ اعترضتْ خطَّتي لتمضية الليلة هناك. فما إن اقتربتُ من المقعد للجلوس حتَّى طاردني سائقو سيَّارات الأجرة وهم ينادونني بـ«أستاذ» و«خواجة»، محاولين حمل حقيبتي عني، ليسألوني أين وجهتي! وبالطبع ولأنَّه لا جواب لديَّ غادرتُ المكان على الفور، على أمل العودة بعد ساعةٍ فيكون هؤلاء قد غادروا، أو على الأقلّ يئسوا منِّي فلا يُحرجونني مجدَّداً بلطفهم وأسئلتهم. ولكن ما إن عدتُ حتى أعادوا الكرَّة! فغادرتُ المكان مجدَّداً. وفي المحاولة الثالثة انزعج أحدهم منِّي ظانَّاً أنني أتكبَّر عليه وعلى سيَّارته فلا أُجيبه عن سؤاله! لم أهرب هذه المرَّة بل جلستُ على المقعد لأني كنت قد أُنهكت تماماً من المشي والجوع واليأس من إيجاد مأوى. وحين وضعتُ الحقيبة تحت رأسي لأنام عَلَتْ ضحكات السائقين وقهقهاتهم، حيث اكتشفوا بأنهم «خُدعوا» فضيَّعوا وقتهم مع سوريٍّ متشرِّدٍ بثيابٍ نظيفةٍ. وانتقاماً لذلك، راحوا كلَّ ليلة -حين آتي للنوم هناك- ينادونني بصوت عالٍ ساخرين هازئين: «لوين يا أستاذ؟ لوين يا خواجة؟»، قبل أن يُطلقوا موجةً هستيريةً

من الضحكات. وقد ظلّوا يكرِّرون هذه المسرحية بشكلٍ يوميٍّ وكأنها نكتة خالدة لا تبوخ. بل إنَّ قهقهتهم راحت تزداد تصنُّعاً وتهكُّماً.

والحقيقة أنَّ تلك الضحكات التي كانت تثير خجلي في البداية، صارت تثير غضبي بعدما انتبهتُ إلى أنَّ سببها الأوَّل هو العنصرية. فأولئك السائقون ما كانوا ليبالغوا في ضحكاتهم تلك وتكرارها بشكلٍ يوميٍّ لو أنَّ المسألة متعلِّقة فقط بخطأ أو سوء فهم عابر. بل هم كانوا يضحكون كنوعٍ من الانتقام من متشرِّد سوريّ استطاع «خداعهم» وجعلهم يهرولون وراءه لحمل حقيبته والتملُّق له.

وعلى الرغم من ذلك، وبسبب السخرية المتبادلة بيننا حيث صرتُ أردُّ على نكاتهم بنكاتٍ مضادَّة، نشأتْ بيني وبين هؤلاء، في ما بعد، صداقةٌ عابرةٌ قوامها تشارُك القصص والنكات والشاي.

***

التفافُ الباص أثناء الصعود من بيروت إلى عاليهْ أعطاني فسحةً خارج الزمن لتسليم نفسي أكثر فأكثر للأشياء، للمنعطفات، لزجاج النافذة، والأهمّ... للذكريات.

شعرتُ بأنَّ هذه الرحلة -التي ستستغرق أكثر من أربعين دقيقة بسبب التوقُّف المتكرِّر للباص- ليست سوى فرصة لاسترداد الذات

من الواقع. فرصة لتنظيف النَّفْس من شوائب الصخب الذي رميتُ نفسي فيه منذ أن انخرطتُ في العمل الصحافي السياسي.

كانت الشمس قد احمرَّتْ كثيراً بفعل حبْس أنفاسها استعداداً للغطس وراء البحر، وكانت منعطفات الطريق الحادَّة توفِّر لي الشعور بلذَّة إرخاء الجسد الثقيل لحركة الأرجَحة بين ضفَّتَي المقعد.

الفتاة النحيلة التي تجلس جانبي أخرجتْ من حقيبة يدها دفتراً صغيراً وسجَّلتْ عليه عباراتٍ أمكنني -بسبب طريقة ترتيبها وراء بعضها البعض- التخمين بأنها قصيدة. فكَّرتُ في فتح حديثٍ معها عن الشعر أو الكتابة، لكني تراجعتُ عن ذلك بسبب الاستغراق الذي أنا فيه، والذي يُشبه القيلولة.

لقد خلَّفتْ لي مرحلة عاليهْ الكثير من الذكريات المؤلمة، وربما هذا الارتياح النسبيّ الذي أشعر به الآن - وأنا في الطريق إلى هذه المدينة- سببه الإحساس بالنجاة... أو بالأحرى الانتباه المتأخِّر إلى أنني قد نجوتُ حقَّاً.

ومع أنَّ تلك الذكريات الأليمة تحوَّلتْ في ما بعد إلى كتلة عاطفية صلبة تزيد من مشاعر الفخر الشخصيّ لديَّ، إلَّا أنَّ فيها العديد من القصص التي إن لم تُشعرني بالعار، فإنها بالتأكيد خلَّفت

فيَّ شعوراً أبدياً بالذنب والقهر والمهانة. وإحدى تلك القصص تتعلَّق بورقة نقدية من فئة العشرة آلاف ليرة لبنانية (ما يُعادل أكثر بقليل من ستة دولارات أميركية).

في ذلك الوقت كنتُ أعمل يوماً واحداً وأقعد أحياناً أكثر من عشرة أيام بلا عمل، فقد كان سوق البناء في أسوأ أوقاته والعمَّال ضعْف ما يحتاجه السوق، كما أنَّ البساتين المجاورة لديها ما يكفيها من الشغِّيلة.

أسبوعان مرَّا صرفتُ خلالهما الليرات القليلة التي معي، وأنا الآن منذ أيام بلا طعام، وصداع الرأس بسبب الجوع تحوَّل إلى دوخة شديدة أفقدتني بعض التوازن أثناء الوقوف والمشي، ومعدتي الخاوية تحوَّلتْ إلى ما يشبه الصخرة الصغيرة المستقرَّة في أحشائي، كما أنَّ زوج خالتي ليس هنا كي أستدين منه بعض المال.

والحقيقة أنَّ ما فاقم وضعي سوءاً في تلك الفترة هو أني كنتُ أُخفي حقيقة بؤسي عن الجميع، ومن ضمنهم زوج خالتي، خوفاً مما أعتبره فضيحةً.

ففي عالم القرية ما أن يُنهي الشابُّ خدمته الإلزامية حتى يبدأ الجميع بمطاردته بالأسئلة عمَّا يعمله؟ وكم يجمع من المال شهرياً؟ ومتى سيبدأ ببناء منزله؟ ومتى سيتزوَّج؟... إلى آخر هذه الأسئلة

اليومية التي يُطلقها البعيد والقريب، والتي سرعان ما تتحوَّل إلى عامل ضغط لا يُطاق يدفع الشاب العاطل عن العمل إلى فعل أيِّ شيء من أجل إسكات هؤلاء. ومن جهتي كانت مصيبتي مضاعفةً لأنني هربتُ إلى الأمام في عطالتي، فصرتُ أردُّ على أقاربي الذين يسألونني عن عملي بالقول إنني أعمل صحافياً في لبنان.

لكنَّ هذا الجواب الذي كان يُسكتهم ويمنعهم موقَّتاً من التمادي في إذلالي بالأسئلة، حرمني في المقابل من الذهاب للعمل في الأماكن التي يعمل فيها شبَّان القرية بجبل لبنان، حيث فرص العمل أكثر، وحيث السكن (في ورش البناء) مؤمَّن. إذ كيف لصحافيٍّ محترم أن يعمل بالفاعل، فيُعتِّل أكياس الإسمنت ويصبُّ العواميد ويُنظِّف الوديان؟... سأغدو أضحوكة أهل القرية بالتأكيد.

لذلك صرتُ مضطرَّاً للبحث عن عملٍ في الأماكن التي أعرف أنَّ أحداً من معارفي لا يعمل فيها.

وهكذا لم يضقْ عليَّ الزمن فحسب، بل ضاقت الأمكنة أيضاً. وصارت الإقامة مع زوج خالتي في مقرِّ عمله بمدينة عاليهْ أفضل الممكن، خصوصاً أنه ذو عقليَّة مختلفة نوعاً ما عن العقليَّة السائدة في القرية، وكان يتعاطف مع كلِّ شابٍّ يحمل طموحاً فنِّياً أو أدبياً، فقد كان يطمح إلى أن يكون فنَّاناً مسرحياً في شبابه، وخانه الحظُّ

والحياةُ معاً.

خرجتُ أمشي لعلَّني أجد شيئاً مرمياً على جانبَي الطريق يصلح للأكل فأقتنصه دون أن ألفت نظر أحد، ككسرة خبز أو بقايا سندويشة تركها صاحبُها على حجر أو فوق حائط منخفض كما يفعل الناس في بلادنا عادةً فلا يرمون الخبز مع بقية النفايات... لكني عوضاً عن ذلك وجدتُ ورقة نقدية من فئة العشرة آلاف ليرة!

لم أُصدِّق لأوَّل وهلةٍ ما رأيتُ، وظننتُ بأنَّ الجوع فعلَ فعله في عينيَّ أيضاً! لكنها كانت نقوداً حقيقيةً فعلاً. دسستُها في جيبي بسرعةٍ وهرعتُ إلى الدكَّان لكي أشتريَ بها طعاماً.

ولم أكد أمشي بضعة أمتار حتى لمحتُ فتاةً لم تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها تمشي ببطءٍ شديدٍ حانيةً رأسها تبحث بعينيها في الأرض عن شيءٍ ما. كانت بالتأكيد تبحث عن ورقة العشرة آلاف ليرة!

لم أشعر بالخزي في حياتي كما شعرتُ بالخزي في تلك اللحظة وأنا أمرُّ بجانبها وفي جيبي النقود التي تبحث عنها!

فكَّرتُ -بعدما تجاوزتُها- أن أعود إليها وأعطيها الورقة النقدية، لكنَّ جسدي الخائر نَهَرَني عن فعل ذلك. وفي تلك

اللحظات أدركتُ بأنَّ معدتي ليست الوحيدة بين أحشائي التي تحوَّلت إلى حجر.

أسرعتُ إلى الدكَّان لشراء ربطة خبز وعلبة سردين بألفَي ليرة، وفي ذهني إعادة الثمانية آلاف ليرة المتبقِّية إلى الفتاة عن طريق رميها بالقرب منها ثمَّ تنبيهها إليها بطريقة تبدو وكأنها عفوية.

تناولتُ الخبز والسردين من البائع البخيل بلا كيس، لأنه اعتاد ألا يعطي كيساً للزبون إذا اشترى بمبلغ صغير، وخرجتُ من الدكَّان مسرعاً إلى المكان الذي تركتُ الفتاة فيه تبحث عن نقودها الضائعة، لكني لم أجد أيَّ أثرٍ لها.

تلفتُّ حولي وجلتُ ببصري على البيوت المجاورة، ثمَّ دخلتُ طريقاً فرعياً توقَّعتُ أن تكون قد دخلتْ فيه، لكنْ عبثاً.

خطر في بالي بأنَّ والد الفتاة الآن ربما سيوسعها ضرباً لأنها أضاعت ثمن الغداء، أو أنَّ تلك النقود هي ثمن القرطاسية المدرسية التي تريد شراءها، أو... أو... ولم تبقَ طريقة لجلْد الذات لم أستعملها في جلْد ذاتي. كلُّ الاحتمالات المؤلمة فكَّرتُ فيها، حتى أنني نسيتُ جوعي، وكأنَّ لحظةً واحدةً من الألم أقوى من عمرٍ كاملٍ من الجوع.

وصلتُ إلى غرفتي منكمشاً كالقنفذ، جلستُ على السرير

وقرَّبتُ الطاولة مني، ثمَّ فتحتُ علبة السردين وأفرعتُ محتواها في الصحن، ولم أكد أمضغ اللقمة الأولى في فمي حتى انهرتُ في البكاء... وكأنني أمضغ قلبَ إنسان!

مدينة عاليهْ

هذا أوَّل مدينة عاليهْ.

«ناطرين على نار»، عبارةٌ كُتبتْ تحت صورة عملاقة لدجاجٍ ينضج على نارٍ قويَّةٍ، عُلِّقتْ قبل مدخل المدينة بقليل. عبارة تستقبلُ بها هذه المدينة الجميلة زوَّارها قبل الدخول إليها.

أُعجبتُ بفكرة الإعلان (ناطرين على نار)، لكني فكَّرتُ كم أنه غير قادر على الخروج من إطار فنِّ الدعاية والإعلان. فكَّرتُ كم أنه مؤلم للمهجَّرين الذين يعرفون بأنَّ هذا الانتظار الحارّ لا يشملهم، لأنه يقتصر على السوَّاح.

فقبل أن يلاقيك مدخلها الذي تمَّ تحديثه على نحو لافت، تلاقيك مدينة عاليهْ بجامع ضخم بُنِيَ خصيصاً للسوَّاح الخليجيين، لا يبعد أكثر من مئتَي متر عن كنيسةٍ مهجورةٍ وغير مكتملة البناء منذ أيام الحرب في حيّ البطركية. وكأنما إعادة السائح إلى المدينة أهمّ من إعادة المهجَّر! وفراريج الإعلان الضخم التي تنتظر «على نار»، يسيل دهنها ومَرَقها للسائح الذي يحتاج إلى مساعدة في تبذير

أمواله، وليس لابن البلد المهجَّر.

مدخل عاليهْ هذا يكاد يكون مدخلاً جيِّداً لبحث الأزمة اللبنانية ككلٍّ.

لكني الآن لستُ في وارد الاسترسال في هذه المسألة المعقَّدة، خصوصاً في خضمِّ الزحام الذي كاد يختنق به الباص منذ أن قطعنا منطقة بعبدا، حتَّى كادتْ مؤخِّرات الواقفين تدخل في أفواه الجالسين!

البابُ الخلفيُّ من الباص أوشك أن ينخلع لكثرة المتكئين عليه من الواقفين. مع ذلك كان السائق لا يجد حرجاً في التوقُّف لحمل راكب جديد! متجاهلاً مختلف أنواع الشتائم التي تنهال عليه وكأنه أطرش... إلَّا عن صوت الزمُّور الذي يستعمله الراكب -عبر شدِّ خيطٍ أسود في سقف الباص- لتنبيهه بأنه يريد النزول.

***

مفارقة الجامع والكنيسة هاهنا، ذكَّرتني بالصورة الفلكلورية الشائعة التي تجمع بين زواياها الأربع كنيسةً وجامعاً متقابلَيْن للدلالة على التعايش والمحبَّة. بينما حقيقة الصورة هي على العكس من ذلك تماماً، حيث إنَّ دور العبادة غالباً ما يُطارد بعضها بعضاً تضييقاً وتناحراً في هذا الشرق المتبطِّل. وهكذا يصبح واقعُ التناحر،

بمجرَّد مروره في كاميرا رومنسية، رمزاً ودليلاً على التعايش!

لكنَّ لهذه الصورة أهمِّيةً تفوق الأهمِّية التي أراد صاحب الكاميرا الرومنسية إبرازها، حيث إنها -ومن دون أن يقصد صاحبها- ترمز إلى شكل العلاقة التكاذبيَّة التي تنتظم عبرها شرائح مجتمعاتنا المأزومة، والتي تقوم على الضغينة المبطَّنة والتي لا حرج لدى أحدٍ من أبنائها في تقديمها كوجهٍ من وجوه المحبَّة والإخاء.

في العام 2000، أو في العام الذي يليه، لا أذكر تحديداً، جرى حوار بيني وبين أحد الأساتذة الجامعيين حول قصَّة رواها بانبساطٍ شديدٍ عن أنَّ جامعاً كبيراً أُقيم بجوار كنيسة في إحدى المدن العربية سبَّب انزعاجاً لدى مسيحيي المدينة لأنه كاد أن يحجب كنيستهم، وكان الحلُّ السحريُّ بأن استقدمَ أصحابُ الجامع مُقرئاً شهيراً ليقرأ في افتتاح الجامع «سورة مريم». قال الأستاذ الجامعيّ صاحب القصَّة بأنَّ المسيحيين تقاطروا إلى الجامع للاستمتاع بسماع السورة التي تحكي عن مُخلِّصتهم، وانتهت الأزمة!

قلتُ للأستاذ الجامعيّ محاولاً تفنيد قصَّته بلطفٍ: ألم يكن من الأفضل لو أنَّهم نقلوا مكانَ الجامع عشرات الأمتار عن الكنيسة عوضَ أن ينقلوا ذلك الشيخ آلاف الكيلومترات إلى مدينتهم؟!

***

الأمثلة التي نصادفها لهذه الصورة المجمَّلة بنوايا حسنةٍ كثيرةٌ جداً. لكنها لا تصمد أبداً أمام العين المجرَّدة والواقعية، فكيف أمام الاختبار العمليّ، مثلما حصل في سنة **2005** حيث تمَّ تحميض أكبر نسخة على الإطلاق لصورة الجامع والكنيسة بواسطة مليون متظاهر لبناني اجتمعوا في ساحة الشهداء ببيروت في مظاهرة ضخمة أخذت اسمها من اليوم الذي أُقيمت فيه: **14** آذار.

لقد رأينا عناق الجوامع والكنائس كالعشَّاق، وكاد الصليب من شدّة حَذْبه أن يصبح هلالاً، تماماً مثلما كاد الهلال أن يفرد يدَيْه ليصبح صليباً.

لكنْ ما إن انسحب الجيشُ السوريُّ من لبنان، وهو الهدف الذي التأمت التظاهرة من أجله، حتى ارتفع صخبٌ شبيه بذلك الصخب الذي مهَّد لحرب الخمسة عشر عاماً في لبنان. صخبٌ سنكتشف في ما بعد أنَّه القرقعة الناتجة عن عملية انفكاك العناق بين الجامع والكنيسة، أو بين دور العبادة عموماً لمختلف الطوائف. وما زاده حدَّةً هو أنه تمَّ بسرعةٍ وعدائيةٍ شديدتَيْن.

لقد ظهرت الصورة الفولكلورية التي تجمع الكنيسة والجامع على حقيقتها في تلك الأيام، حيث كان بوسع أيِّ شخصٍ استعارة مقصٍّ صغيرٍ من أحد محال المزيِّنين المنتشرين بكثرة في وسط المدينة،

وقصّ تلك الصورة إلى نصفَين.

***

مع أنه بات عليَّ النزول الآن قرب تمثال شكيب جابر عند مستديرة مدينة عاليهْ، إلَّا أنني آثرتُ البقاء في الباص وعدم النزول إلَّا في وسط المدينة، كي تتسنَّى لي رؤيتها مجدَّداً واختبار نضج أحاسيسي الجديدة على نار ذاكرتي القديمة.

شريط المطاعم والمقاهي الذي يستغرق معظم الشارع الرئيسيِّ، يبدو مثل ريبانة ملوَّنة تعقص بها «عروس المصايف» شَعرها.

«فندق طانيوس» الذي يُعاد تأهيله من جديد، ومثله «بيسين عاليهْ» المتصابي الذي لا يوجد مطرب عربيّ مشهور لم تصدح حنجرته في لياليه، سيستقدمان الكثير من «الأرجل الغريبة» إلى المدينة.

«عروس المصايف»، اللقب السياحيّ الشهير لمدينة عاليهْ، لم تُفقدها الحرب عذريتها، بل زادتها إثارةً حين جاورت بين تماثيلها الحداثية في السمبوزيوم ومنازلها المهدَّمة والمهجورة على الأطراف. وحقيقةً فإنَّ مثل هذه المفارقات والتناقضات هي من طبيعة البلاد التي اجتاحتها الحروب.

وفي بلدٍ مثل لبنان لم تؤسِّس حربه الأهلية إلا لمشروع حرب

أهلية جديدة، يصبح التناقض أكثر حدَّةً وأكثر مفارقةً.

***

نزلتُ عند السرايا، وبدل أنْ أمشيَ إلى أوَّل المدينة ومن ثمَّ أذهب إلى البناية التي يعمل فيها زوج خالتي، ذهبتُ إلى «الساحة»، مكان التجمُّع الرئيسيّ في عاليهْ للعمَّال السوريين القادمين في معظمهم من منطقتي في جنوب سوريا، والذين لا يغفرون للمحطَّات التلفزيونية (المسيحية) حديثَها الدائم عن وجوب تنظيم العمالة في لبنان.

بعض هؤلاء العمَّال من حملة الشهادات الجامعية والمتوسِّطة، يجلسون النهار كلَّه في الساحة ينتظرون من يحتاج إليهم في أعمالِ بناءٍ أو نكشِ أرضٍ أو تعتيل بضائع.

وأثناء جلوسهم الطويل تدور رحى الأحاديث: شائعة حول إمكان صدور مرسوم يُوفِّر مئة ألف فرصة عمل في سوريا، وشائعة حول زيادة رواتب محتملة وقريبة، وثالثة حول تقليص الخدمة العسكرية الإلزامية إلى سنةٍ واحدةٍ بدلاً من السنتين ونصف السنة... الشائعات ولا شيء غيرها، وكلُّها من النوع الذي يغبط ويُبهج.

في مدينة الفنادق هذه، يملك هؤلاء «السيَّاح» -الأشدّ بؤساً في لبنان- فنادقَهم الخاصة، المجانية والمزدحمة، من عمارات مهجورة إلى ورش بناء غير ناجزة، إلى الغرف الرخيصة التي يجتمعون فيها

أفواجاً مُقلِّدين، في إقامتهم هذه، وجبتهم اليومية: السردين.

لمرَّةٍ واحدةٍ فقط جرَّبتُ الانتظار معهم، وبعد أقلّ من نصف ساعةٍ غادرتُ «الساحة» حانقاً وكئيباً لأني كنتُ مضطرَّاً كلَّما اقتربت سيَّارة أن أركض إليها مع الراكضين لعرض خدماتي وتخفيض «سعري» كما لو أنني أمام نخَّاس. غادرتُها ووقفتُ حيث أنا واقفٌ الآن أمام محلّ شعبيّ صغير مكتوب على واجهته «أطيب فلافل في العالم». اشتريتُ أربع سندويشات لي ولزوج خالتي، وانطلقتُ ماشياً.

***

طبيعةُ الذكريات وأنت تمشي، تختلف عن طبيعتها وأنت جالس. أصلاً المشي يبثُّ روحه في كلِّ ما يمسُّه من أشياء، بل ويُغيِّر من طبيعته. فإذا صحَّ أنَّ الذكريات وأنت جالس تشبه البركة الصافية والعميقة، فهي حين تمشي تصبح نهراً حقيقياً سيَّالاً يتدافع بمرح وعبثٍ، حتى تلك الذكرى الأليمة سرعان ما تضيع في مجراه بعد أوَّل ركلةٍ تتلقَّاها من الذكريات المرحة.

وهكذا كان مشواري وأنا أقطع ماشياً الطريقَ الرئيسيَّ لمدينة عاليهْ. الفرحُ الفجائيُّ الذي غمرني طردَ كلَّ تلك الذكريات السيِّئة من رأسي كما يطرد أصحابُ المنزل ضيفاً ثقيلاً. صرتُ خفيفاً

كتلك الثياب المغسولة التي تخفق في الريح من على شرائط المنازل العالية. لقد نشفتُ كقطعة الحرير الأصليَّة، وبدأتِ الريحُ الآن تحسُّ بطواعيتي فتعبث بي أكثر فأكثر.

تمنَّيتُ ألَّا ينتهي هذا الشارع الجميل العابق بأصوات الموسيقى المنبعثة من المطاعم والمقاهي. وتذكَّرتُ فكرةً أثيرةً لأخي الأصغر قالها لي في الطفولة بينما نحن سائران في شوارع دمشق مع أبي، حيث مررنا بالقرب من أحد أكشاك الموسيقى وكان الستريو يصدح بموسيقى أغنيةٍ شهيرةٍ في ذلك الزمن. لم نجرؤ على الطلب من والدنا التوقُّف للاستماع إلى موسيقى الأغنية، بل تابعنا السير ملتهبي المشاعر. قال لي أخي بانفعالٍ، وصوت الموسيقى قد اضمحلَّ بسبب ابتعادنا عن مصدره: «تصوَّرْ، مع أنها أجمل موسيقى أسمعها في حياتي، لكنني لا أستطيع التوقُّف للاستمتاع بها»!

ما أفهمه الآن من جملة أخي البسيطة والعميقة تلك، هو أنَّ كلَّ شيء في حياة الإنسان يشبه تلك الموسيقى الرائعة والعابرة. فأنت تتحرَّق لسماعها، لكنك مع ذلك لا تستطيع التوقُّف عن المشي. كأنك لا تمشي، بل تركب قطاراً. كأنَّ رجلَيك ليستا لك أو أنه ثمَّة شخصٌ آخر هو من يتحكَّم بهما.

الأشخاص الحسَّاسون أمثال أخي واجهوا صعوباتٍ كبيرةً في

حياتهم بسبب مثل هذه الأفكار التي أستطيع وصفها بالخطرة. وأنا شخصياً لو لم ترأف بي الحياة فترميني في طاحونة العمل الأدبيّ والصحافيّ والسياسيّ لكنتُ إلى اليوم ما أزال واقفاً بالقرب من ذلك الكشك من دون أن يتسنَّى لي سماع موسيقى الأغنية.

***

كان باب غرفة زوج خالتي مقفلاً بقفل كبير يعني بأنه مسافر، ولا فائدة من الطَّرْق عليه. تجوَّلتُ في أرجاء المكان قليلاً، ثم جلستُ على المصطبة آكل الفلافل الذي أتيتُ به. وبسبب العتمة التي استحكمتْ لم أستطع أن أُقلِّب نظري جيِّداً في أرجاء البستان الذي شربَ من عرق جسدي أقلَّ بقليلٍ مما شربتُ من مياه هذه المدينة.

لم يكن ثمَّة أحد في المكان كي أُوصيَه بإبلاغ زوج خالتي بزيارتي له، كما أنني وجدتُ أنَّ فكرة وضع ورقةٍ على باب الغرفة غير لائقة بعد انقطاعي الطويل عنه.

قفلتُ عائداً، مرهقاً هذه المرَّة، لكني غير حزين، بل على العكس -ويا لخبثي- سعيدٌ في قرارة نفسي، لأني نجوتُ من سهرةٍ مُعاتَبةٍ.

روح حافظ الأسد

لم تكن لحظة وفاة حافظ الأسد لحظةَ وفاةٍ عاديةٍ عند السوريين. الإنسان العادي حين يموت ينقسم إلى نصفَيْن: نصف ينزل إلى الأرض (الجسد)، ونصف يصعد إلى السماء (الروح).

لكنْ في حالة دكتاتور صنعَ سمعته من الرعب، فإنَّ نصفه الثاني (الروح) سيرفض مغادرة الأرض. سينتشر بين البيوت ويتحوَّل إلى آذان وعيون.

العاطفة لا مكان لها عند تلقِّي خبر موته. وإذا كان ثمَّة من مشاعر فهي مشاعر غير واثقة، ولذلك هي غير صادقة. حتى الذين تألَّموا فعلاً للخبر، طردت الصدمةُ مشاعرَهم الحقيقية وأجلستْ مكانها مشاعرَ مزوَّرةً. حتى الذين سعدوا بهذا الخبر لم تكن سعادتهم حقيقية. حتى الذين شمتوا لم تكن شماتتهم صافية.

إنَّ إنساناً حُبِسَ في القبو لمدَّة أربعين عاماً حين يرى الشمس للمرَّة الأولى لن يعرف كيف يستقبل ضوءَها، وعلى الرغم من كلِّ الدفء الذي تبثُّه في جسده إلَّا أنها حتماً ستُزعج عينَيْه اللتين لن

يستطيع فتحهما بسهولةٍ لتلقِّي هذه الكمِّية الفائضة من النور.

لقد أعمى بعضَنا الشعاعُ البازغُ من خبر موت الدكتاتور. لقد جعلنا نغمض أعيننا. لذلك شعرنا بالخوف والريبة حين سمعنا الخبر، فأقفلنا بابَ البيت علينا.

عجوزٌ يكسر عصاه في مأتمِ شابّ

بعد موت حافظ الأسد ببضعة أشهر، كنتُ أشارك في مأتم شابٍّ قضى بحادث سيرٍ في إحدى قرى جبل الدروز، حين قام رجلٌ عجوز جاوز المئة من عمره، وكسرَ أمام الجميع عصاه التي يتوكَّأ عليها، حالفاً ألَّا يستعملها بعد اليوم، ما دام الشبَّان يموتون، وهو العجوز حيٌّ يرزق!

على مرآنا جميعاً، وضعَ هذا العجوز عصاه على حافَّة مصطبة «الموقف» (باحة العزاء لدى الدروز)، وقال بيتَيْن من الشعر قبل أن يدعس على العصا بكلِّ عزمه ويكسرها!

يومها انفجر والد الشاب بالبكاء، بينما انفجر إخوته بالسُّخط. وأنا أراقب الجميع مذهولاً بالسحر الذي يستطيع صنعه أناس بسطاء.

العجوز كسرَ عصاه ومشى منتصباً وكأنه كسرَ سنواته المئة مع العصا. عاد شاباً مليئاً بالفخر.

صحيحٌ بأنَّ كُثُراً انتقدوه بشدَّةٍ وقالوا بأنَّ في هذا الفعل «استكباراً» و«تجبُّراً»، إلَّا أن الجميع كان في قرارة نفسه مُعجباً بهذه الحركة الاستعراضية والجريئة، والتي لا تخلو من فلسفةٍ خاصَّةٍ للحياة والموت.

يطلبون الأبد لجثَّة!

بقي حافظ الأسد شاباً حتى بعد موته. حكمَ سوريا من قبره كما كان يُردِّد الناس بتسليم كامل.

وفي لحظة إعلان موته، برزتْ قسوتُه كما لم تبرز يوماً. فقد جرى همسٌ يقول بأنَّ حافظ الأسد كان قد مضى على موته أسابيع عدَّة قبل نعيه، وقد وضعوه في برَّاد الموتى ولم يعلنوا وفاته ريثما يُمهِّدون الأرضيَّة للشروع بتنفيذ خطَّة التوريث.

إذاً، لقد عاش ملايين السوريين طوال أسابيع يهتفون بحياة جثَّة! ويخرجون في المسيرات طالبين «الأبد» لجثَّة! ويسمعون تلفزيونهم يدعو بطول العمر لجثَّة!

كان ذلك مأساوياً بالنسبة إليَّ كشابٍّ في مقتبل العمر. وقد أثارني جداً التفكيرُ بأنَّه في وسع مومياء مجمَّدة أن تحكم بلداً بأكمله! بأنَّه في وسع جثَّة رجل عجوز أن تثير كلَّ هذا الرعب في قلوب ملايين الناس!

لقد برز حافظ الأسد قاسياً وشرِّيراً حتى في موته.

«فلافل الباسل»

هستيريا من النفاق والدَّجَل اندلعتْ فور إعلان خبر الوفاة.

كان الشعراء في المقدِّمة لرثاء الرجل الذي «لم يحلمْ بهِ في الملاحمِ الشعراءُ»، والذي لولاه «لكان العُرْب ما وُجِدوا».

كتبتْ شاعرةٌ تقول إنَّ حافظ الأسد هو الميِّت الذي يُحيي. وكتبتْ زميلةٌ لها تُطالب الأبجدية بأن تكون «مليارَ حرفٍ» لكي تستطيع إيفاء الأسد الراحل حقَّه. شاعرٌ آخر أقسمَ بأنَّ الموت لم يكن موجوداً ولم يسمع به الناس حتى مات حافظ الأسد.

وفي حفلة الدَّجَل تلك، لم ينسَ هؤلاء المنافقون التبشير بالأسد الابن. أحد الشعراء أصدر حكمه المبرم بأنَّ بشار الأسد، الذي كنَّا يومذاك بالكاد نعرف عنه شيئاً، «أعدلُ مَن يسودُ ويحكمُ». شاعر آخر تغزَّل بوجه الأسد الابن كما يتغزَّل شاعرٌ بوجه محبوبته: «عشقتُ وجهَكَ يا بشار...»، قبل أن يتحدَّث عن «حرقةَ اللهب» التي تعتمل في قلبه!

لم يتركوا شيئاً يمكن أن يُقال في مديح أبطال الحروب وأبطال

السينما على السواء إلَّا وقالوه في الرئيس الوريث. حتى طوله كتبوا عنه واعتبروه دليلاً على الشموخ! حتى مجلس الشعب الذي عدَّل الدستور في خمس دقائق من أجل انتخاب الأسد الابن امتدحوه: «يا مجلس الشعب الوفيّ بجُلَّق»! أحد الشعراء قال بأنه حين سمع كلمة «نَعَم» في مجلس الشعب أُصيب بحالة «انصهار عاطفيّ»!

***

في الحقيقة إنَّ مسألة انتقاء الألفاظ في المديح هي مسألة غاية في الجدِّية والخطورة في الدول الدكتاتورية. لذلك يلجأ الشعراء المنافقون عادةً لإبراز المبالغات في الوصف كي يحموا أنفسهم في حال أخطأوا في انتقاء الصورة المناسبة. فكتابة بيت من الشعر يمتدح طولَ بشار الأسد مخاطرةٌ حقيقيةٌ لأنَّ هذا الطول الزائد ربما يكون بمثابة العقدة الحسَّاسة عنده، وبالتالي فإنَّ تناولها بطريقة غير مُحكَمةٍ ربما يزعجه.

***

حين ضربتْ سوريا حمَّى «الباسل» منتصف التسعينيات على شكل مئات التماثيل وملايين الصور وآلاف المحال والصالات والمراكز المسمَّاة باسم باسل الأسد، قام أحد الشبَّان البسطاء في مدينة الشدَّادي شمالي شرقي سوريا، حيث كانت تقيم أسرتي،

بافتتاح كشكٍ بسيطٍ لبيع الفلافل سمَّاه: «فلافل الباسل».

كان الكشك بائسَ المنظر، مصبوغاً باللون الأزرق الغامق، ذا سقف من الصفيح، وعبارة «فلافل الباسل» مكتوبة بخطِّ اليد بشكل رديء جداً.

لم يتوقَّع الشابُّ إطلاقاً أنَّ هذه التسمية ستُعرِّضه لتحقيق عنصر أمن معه! بل على العكس تماماً، هو اعتقد بأنَّ إطلاق اسم «الباسل» على كشكه سيُعطيه امتيازات، أهمّها عدم تعرُّض عناصر المخابرات له، حيث إنهم يتدخَّلون في كلِّ شيءٍ يتعلَّق بالسوق.

جاء إلى الكشك رجل مخابرات، ككلِّ رجال المخابرات في سوريا يضع نظارات سوداء ويُثبِّت مسدَّسه على خصره بشكل بارز ليُرهب الناس، وبدأ يُوبِّخ الشاب المسكين لأنه تجرَّأ ووضع اسم «الباسل» على محل لبيع الفلافل!

ومن شدَّة خوفه، اقتنع الشابُّ فعلاً بفداحة الجريمة التي ارتكبها حين قرنَ اسماً مقدَّساً كـ«الباسل» بأكلة شعبية رخيصة كالفلافل، وراح يعتذر مُقسِماً لعنصر المخابرات بأنه لم يقصد أيَّ إهانةٍ للاسم! ثمَّ سأله -وبشكل بريء وساذج- السؤالَ الآتي: «ما رأيك أن أُحوِّله إلى محل شاورما... شاورما الباسل؟».

أُسقِطَ رجل المخابرات في يده، ولم يعرف بماذا يُجيبه. لذلك

أخبره بأنه سيأتي له بالجواب في الغد.

ومضى الغد وبعده، وبقي الكشك كشكَ فلافل، وبقي اسم «الباسل» عليه، وصرنا كلَّ يوم، في طريق عودتنا من المدرسة، نلمح عنصر المخابرات واقفاً أمام الكشك يلتهم بنهم سندويشة الفلافل التي لم يكن يدفع ثمنها بالتأكيد، غير مكترثٍ باسم «الباسل» الذي تسخَّمَ كثيراً مع مضي الوقت بسبب الدخان المنبعث من الوعاء الكبير لزيت القلي.

استفتاء سنة 1998

في الاستفتاء الأخير الذي أُجريَ سنة **1998** لقول «نعم» لإعادة انتخاب حافظ الأسد رئيساً للجمهورية، كنتُ ما أزال أؤدِّي خدمتي العسكرية الإلزامية في لواء دبَّابات يُرابط بالقرب من مدينة حماة.

بعد انتهاء الاستفتاء والاحتفال بنجاح الرئيس به بنسبةٍ بلغت **99,89** ٪، وقد كنا ساهرين حول إبريق شاي مطبوخ على الحطب، جاء جنديٌّ كنَّا نعرف بأنه ذو «خط نظيف» (تعبير شعبيّ في سوريا يُكنَّى به عن المُخبر الذي يكتب التقارير الأمنية) وقال لنا إن نتيجة الاستفتاء «مُزوَّرة»!

لم نُعلِّق على كلامه «الجريء» لشعورنا الأكيد بأنه ينصب لنا فخّاً، فيُشجِّعنا على الكلام لينقل كلامنا بعد ذلك إلى ضابط الأمن.

لكنَّ المفاجأة جاءت من تحليله لما يعنيه بـ«التزوير»، حيث شرح لنا أنَّه يقصد بأنَّ النتيجة هي قطعاً **100** ٪ ولكنْ تمَّ تغييرها إلى **99.98** ٪ كي تبدو منطقيةً أكثر. قال ذلك الجندي متحمِّساً:

«بربّكم، هل من أحدٍ يجرؤ على الاستفتاء بـ لا ضدّ الرفيق المناضل؟!»... قبل أن يتابع كلامه ضارباً كفَّاً بكفٍّ: «من أين قد جاؤوا بهذه النسبة إذاً؟!».

كانت الفكرة مثيرةً فعلاً. فمن يجرؤ على الاستفتاء بـ«لا» ضدَّ حافظ الأسد؟!

لقد قمتُ في تلك الليلة -بفضل الطُّرفة التي طرحها ذلك العسكريُّ المُخبر- بإجراء عملية حسابية تقريبية لمعرفة عدد الذين قالوا: «لا» لحافظ الأسد بحسب نتائج الاستفتاء مفترضاً أن 10 ملايين مواطن فقط (هم أكثر بقليل من نصف الشعب السوري) شاركوا في الاستفتاء.

وكانت النتيجة مذهلةً: 2000 سوريّ وضعوا ورقة «لا» في الصناديق!

لو نبَّه أحدهم حافظ الأسد آنذاك إلى أن نسبة 0.02 من المستفتين تعني أن هناك 2000 شخص قالوا له «لا»، لغيَّر رأيه بالتأكيد وأمر بأن تكون نتيجة الاستفتاء 100 ٪ كما فعل عدوُّه اللدود صدَّام حسين بعد أعوام قليلة.

وعموماً لو أننا دقَّقنا في المسار التصاعدي لنتائج الاستفتاءات التي أجراها حافظ الأسد لعرفنا بأنَّ الاستفتاء القادم -والذي حَرَمَه

الموت من إجرائه- ستكون نتيجته قطعاً **100** ٪. فقد أجرى حافظ الأسد خمسة استفتاءات طوال حكمه في سنوات **1971**، **1978**، **1985**، **1992**، **1998**، وكانت نسبة التأييد الوهمية تزداد مع كلِّ استفتاء: **65** ٪، **96.6** ٪، **97.7** ٪، **99.8** ٪، **99.98** ٪. وكان واضحاً أن الاستفتاء المقبل -لو حصل- سيأخذ نسبة **100** ٪.

هذا التصاعد في نسبة التأييد الوهمية عند كلِّ استفتاء جديد يُعبِّر في حقيقته عن ضيق صدر حافظ الأسد حتى بهذه النسبة الضئيلة جداً من عدم المؤيِّدين له.

كان حافظ الأسد على وشك أن يُعلن أُلوهته لولا أن الجسد خانه. وبعد موته سَرَتْ وشوشةٌ بين بعض السوريين تقول: كيف ترك حافظ الأسد كلَّ هذا العزّ ومات؟!

«الأب القائد»

لم يكن حافظ الأسد حقبةً مرَّت بها سوريا، بل كان مرضاً. سباتٌ هائل صنعه رجلٌ مريضٌ بالعَظَمة، مليء بالقسوة وبالأحقاد التي تكبَّد مشقَّة حملها والنزول بها من الجبال. سبات لم يقضِ فقط على الحراك السياسي، بل أيضاً زوَّر التاريخ وحَرَفَه، طامساً المعالم الأساسية في تاريخ سوريا ليُبرز مكانها معالمَ هامشيةً وَضَعَها كخلفيةٍ لتاريخه الشخصي الهزيل.

ومن أخطر ما فعله هذا الرجل أنه صنع جيلاً كاملاً من الآباء الأذلَّاء والمذعورين، الذين صنعوا بدورهم أجيالاً شوَّهوا فكرتها عن العالم والحياة وهي لمَّا تزل في مرحلة الطفولة. لا أعرف كيف لم يشعر الدكتاتور العجوز بتأنيب الضمير وهو يُجبر أطفالاً صغاراً على المشي في عزِّ الظهيرة لرفع صوره والهتاف باسمه. يمكننا أن نتفهَّم إجباره الكبار على فعل ذلك، لكن حين يتعلَّق الأمر بالأطفال فإن مسألة تأنيب الضمير لا يمكن تجنُّب طرحها.

وربما لذلك اخترع الدكتاتور لقباً له خاصَّاً بأفواه هؤلاء

الأطفال حيث كان يجب عليهم مناداته بـ«الأب القائد».

ولكنْ هل يمكن فعلاً تخيُّل حافظ الأسد أباً؟

لو حدث أن سُئلَ أحد أبناء جيلي من الذين وُلدوا بعد سنة 1970 هذا السؤال لأجاب بأنه إن لم يرَ في حافظ الأسد صورةَ الأب، فإنه بالتأكيد كان يرى في الأب صورةَ حافظ الأسد.

لقد كنَّا جيلاً من الأبناء المشوَّهين لجيل من الآباء الأذلَّاء والقساة. مثل هذه الجريمة الكبرى لم يلحظها أحدٌ من الذين كتبوا وعدَّدوا جرائم حافظ الأسد طوال ثلاثين عاماً من الحكم المطلق.

سجن المنفى

نيسان 2008.

اتصلوا بي من «المفوَّضية السامية لشؤون اللاجئين» ليخبروني بموعد المقابلة في السفارة الأميركية!

تفاجأتُ وسألتهم عن هولندا، لأني كنت قد أخبرتهم حين تقدَّمتُ بطلب اللجوء بأنني أُفضِّل هولندا (لأنها كانت الأنشط آنذاك في استقبال اللاجئين العراقيين)، فكان الجواب بأنَّ هولندا امتنعتْ في الفترة الأخيرة عن قبول المزيد من اللاجئين، وبأنَّ الولايات المتحدة هي البلد الوحيد الذي أبدتْ سفارته استعداداً لمنحي اللجوء. ثمَّ أردفت الموظفة التي كانت معي على الهاتف بأنَّ عدم ذهابي إلى المقابلة سيُقلِّل من فرص قبول إعطائي مقابلة أُخرى، وأنهت المكالمة بالتأكيد على أن منح المقابلة لا يعني الموافقة على منح اللجوء.

كان عليَّ أن أخبر زوجتي الموجودة في الكويت بموعد المقابلة كي تأتي. ذهبتُ واشتريتُ بطاقةً للاتصال الخارجيّ، ثمَّ عرَّجتُ

على المتجر المجاور لمكان عملي لشراء بعض الأغراض. وأنا خارجٌ من المتجر التقيتُ بصحافيٍّ لبنانيٍّ أخبرني بأنه ذاهب في زيارة إلى سوريا. ولأنه يعرف بأني لا أستطيع زيارة بلدي سألني بلطفٍ إذا ما كنتُ أحتاج شيئاً من سوريا. لقد كانت لحظةً شخصيةً مؤلمةً لا يمكن نسيانها، حيث يسألني فيها «الغريب» إذا ما كنتُ أحتاج إلى شيءٍ من بلدي الذي هو ذاهبٌ إليه في حين أنني محرومٌ من زيارته.

إنَّ المنفى هو في شكلٍ من الأشكال سجنٌ. لكنَّه سجنٌ فريدٌ من نوعه. سجن ليس له قضبان، أو بالأحرى إنَّ قضبانه مغروسة في بعض أجزاء جسدك، كالسيخ المعدنيَّة التي تُغرَس للمصاب في الساق أو في الساعد، والتي تواظب على تذكيره بوجودها -عبر الألم- كلَّما تقلَّبتْ درجات الحرارة.

السجن العادي يسجنك داخله، بينما سجن المنفى يسجنك خارجه. في السجن العادي أنت ممنوع من الخروج، وفي سجن المنفى أنت ممنوع من الدخول.

الهواء الذي صنع رئتيكَ لم يعد في وسعك استنشاقه. والماء الذي صنع خلايا جسمك لم يعد في وسعك الشرب منه. والتراب الذي أخذتَ من لونه لونَ عينيك لم يعد في وسعك تعفير قدميكَ به. ذلك كلُّه يحدث لأجل كلمةٍ قلتَها أو كتبتَها ضدَّ الدكتاتور.

إنك تقريباً تسمعه وهو يقول لك: حسناً، لقد أفلتَّ من عقابي الجسديّ، فلتعشْ إذاً قصاص الروح.

هذا هو سجن المنفى: جسد طليق وروح مسجونة.

القسوة طقساً جماعياً

القسوة التي تعتمدها الأنظمة الدكتاتورية سرعان ما تتسرَّب إلى عقول الضحايا أنفسهم، فيُربِّي كلٌّ منهم في داخله جلَّاداً صغيراً يتحيَّن الفرصة المناسبة للخروج والإعلان عن نفسه.

أناسٌ كُثُرٌ كانوا طيِّبين وبسطاء، لكنهم انقلبوا وحوشاً إثر مرورهم في تجربة معيَّنة، كالتطوُّع في المخابرات، أو عقد صداقة مع أحد المسؤولين، أو تسنُّم منصبٍ حزبيٍّ. وسرعان ما كانت تظهر فجاجة تلك الشخصيات المتحوِّلة عبر إظهارهم انعدام الرحمة والشفقة في قلوبهم، حتى تجاه جيرانهم وأقاربهم! لقد كنَّا نسمع قصصاً لا تُصدَّق عن القسوة وانعدام الشفقة تحصل بالقرب منَّا، لذلك كانت قسوة الأب أمراً عادياً في حياتنا، لأننا كنَّا نقارنها بالقسوة التي نسمع عنها.

في مطلع التسعينيات في حقول الجِبْسة بالشدَّادي، حيث كان والدي يعمل، عُوقب أحد العمَّال من الذين تمَّت الوشاية بهم لدى المخابرات بأنْ وضعوا في فمه حذاءً وجالوا به على رفاقه في العمل،

قبل أن يغيب في أقبية المخابرات ويختفي نهائياً! وكان رفاقه مقتنعين بأنه هو من يتحمَّل مسؤولية ما حصل، ليس لأنه تحدَّث في السياسة بل لأنه لم يأخذ حذره من الأشخاص الذين تحدَّث أمامهم.

هنا تبرز اللامبالاة كردٍّ فعلٍ اعتياديٍّ تجاه مصائر الآخرين. ومن اللامبالاة تجاه مصير زميل عمل قبضتْ عليه المخابرات، إلى اللامبالاة تجاه صراخ جارةٍ يقوم زوجها بضربها بشكل عنيف، إلى اللامبالاة تجاه شعبٍ كاملٍ يُساق إلى المسلخ كلَّ يوم وبلا ثغاء.

القسوة هاهنا تكفُّ عن كونها طبعاً من بين طباع كثيرة يتمتَّع بها قلَّةٌ من الناس، لتتحوَّل إلى طقسٍ جماعيٍّ اعتياديٍّ يتمثَّل في الفعل (العنف) وردّ الفعل (لامبالاة الآخرين).

جملةٌ من القصص التي نشرتُها في الصحافة لم يُصدِّقها بعض أصدقائي:

حكاية الرجل الذي كان يعاقب ابنته بأنْ يُعرِّيَها ثم يُحمِّي المكواة ويقوم بكيٍّ بعض المناطق الحسَّاسة في جسدها وسط لا مبالاة الجيران!

أو حكاية المرأة التي قالت لزوجها، الذي يضربها باستمرار، بأنَّ جارهم يستحقُّ أن تشرب زوجته الماءَ الذي يغسل فيه قدمَيه بسبب معاملته الحسنة لها، فإذا بالرجل يقوم بغسل رجلَيه في وعاء

مجبراً زوجته على أن تشرب ذلك الماء القذر!

كان يمكن لهذه القصص أن تكون قصصَ عنفٍ محض لولا لامبالاة الآخرين التي حوَّلتها إلى قصصِ قسوةٍ جماعيةٍ.

إنَّ العنف الفرديَّ لا يمكنه اكتساب كلِّ تلك القسوة بلا لمسات الآخرين. مجموع العنف كفعلٍ واللامبالاة كردٍّ فعلٍ هو ما يصنع القسوة الشاملة، وهو ما يصنع العمر المديد للأنظمة الشمولية.

لقد عشنا في دائرة مرضٍ شبه جماعيٍّ انخرط في غلوائه أناسٌ هم في الأصل طيِّبون وسريعو البكاء.

وبالطبع لا يمكننا أن ننسب ذلك كلَّه إلى نظام الاستبداد السياسي فقط، لكنْ يمكننا أن نؤكِّد بأنَّ الدكتاتورية تستثمر في هذا المرض وتحاول تعميمه كحالةٍ طبيعيةٍ في المجتمع لأنها بذلك تُسهِّل على نفسها إدارة التناقضات وتعميق الشروخ المجتمعيَّة وخلق وقائع مطلوبة وجاهزة للاستخدام عند الحاجة.

شخصياً، انحفرتْ في ذاكرتي حكاية بعيدة جداً عشتها في طفولتي عرَّفتني بشكلٍ سحريٍّ على مفاهيمَ مثل القسوة والعنف والشفقة، وكان لها الفضل في صناعة جزءٍ مهمٍّ من شخصيتي.

فقد سُرِق بيتنا المتواضع في حيّ غويران بمدينة الحسكة مطلع الثمانينيات. سُرقت مُسجِّلة البيت التي كانت تساوي نصف

ممتلكات المنزل في ذلك الوقت مع بعض أشرطة الكاسيت التي كان أبي حريصاً على كتابة اسمه عليها مع توقيعه.

كانت حادثةً محزنةً بالنسبة إلى أسرة فقيرة كأسرتنا آنذاك. فقد حُرِمتْ أُمِّي من سماع الراديو أو سماع أشرطة الأغاني وهي تقوم بأعمال التنظيف والطبخ، كما حُرِمَ أبي من هوايته في تسجيل الأشرطة بأصواتنا وإرسالها كهدايا إلى دار جدِّي في السويداء.

ولم تمضِ بضعة أيام على تلك الحادثة، حتى وقفتْ سيَّارة شرطة أمام بيتنا ونزل منها شرطيٌّ ضخمٌ وأخبر أُمِّي بأنهم قبضوا على اللصّ وأنه موجود الآن في السيَّارة وأنَّ بإمكانها رؤيته والبصاق عليه.

وبالفعل هَرَعَتْ أُمِّي بحماسةٍ شديدةٍ لرؤية اللصّ والبصاق في وجهه. لكنها ما إن نظرتْ داخل السيَّارة حتى عادتْ ممتقعةَ الوجهِ وكئيبةً.

أخبرتني أُمِّي بأنَّ وجه اللصّ كان مشوَّهاً من كثرة الضرب، وبأنَّ عينَيْه غائرتان بسبب الورم الأسود حول كلٍّ منهما.

قالت أُمِّي إنها خجلتْ من نفسها حين رأته في هذه الحالة، وبلعت البصقة.

آه يا أُمِّي، لقد صنعتِ بتلك البصقة الموؤودة شخصيةَ الشاعر

الذي صرتُه في ما بعد. لقد صنعتِ بتلك البصقة التي بلعتِها تمثالاً خالداً للإنسان الرقيق والطيِّب!

المشاعر في المجتمعات القمعية

كان وجه زوجتي -حين لاقيتُها في المطار وهي قادمة من الكويت- قد تغيَّر بسبب تسريحة الشعر الجديدة التي اعتمدتْها في ذلك اليوم. كم كنتُ أخشى من هذا الإحساس بالتغيُّر كلَّما استقبلتُها في المطار بعد غياب شهر أو شهرين.

الغياب -بسبب ضغطه الشديد على جوهر الأشياء- لا يحتمل المزيد من التبدُّلات في الشكل.

كنتُ في كلِّ مرَّةٍ آتي إلى المطار بوهمِ أنِّي سألقى زوجتي في الشكل ذاته الذي ودَّعتها فيه آخر مرَّة، بل وحتى في الملابس ذاتها. خجلتُ من مطالبتها بألَّا تقوم بتغييراتٍ في مظهرها حين يكون موعد لقائنا في المطار. وخجلتُ أكثر من هذه التفاهة التي أُغرق نفسي فيها كلَّ مرَّةٍ.

***

لقد عشتُ عمري مضطرباً في مسألة تقييم المشاعر، وفي مسألة تحديد قيمتها الفعلية في الحياة. عشتُ عالقاً في مصيدة تلك المشاعر

كحشرةٍ ضحمةٍ عالقة في خيوط عنكبوت صغير. لا أعرف إذا ما كان الأمر يتعلَّق بكوني شاعراً، أم بكوني منفياً من بلدي، أم بكوني أعيش غريباً وبعيداً عن أيِّ حضنٍ عائليٍّ يمتصُّ حرارة اضطرابي وعواطفي وانفعالاتي.

لقد تحدَّثتُ قبل قليل عن الفرق بين القسوة والعنف في المجتمعات المحكومة بأنظمةٍ دكتاتوريةٍ، ليس لأني فقط مهتمٌّ بالمعنى الذي يُسبغه الآخرون على المشاعر تجاه عنف الفرد، وإنما لمحاولتي الدائمة تقديم تفسيرات للمشاعر. فأنا أؤمن بأنَّ المشاعر غير المفهومة تنطوي على ألم مساوٍ لألم المشاعر المؤلمة حقَّاً.

إنَّ وجود أناس حسَّاسين في مجتمعات القهر سيجعل منهم إمَّا أشخاصاً عنيفين وإمَّا أشخاصاً مضطربين في مسألة تقييم المشاعر. الشرك الذي ينصبه القهر في مثل تلك المجتمعات يجعل الضحايا يرون ما يجري حولهم برؤيةٍ مشوَّهةٍ، تماماً كالمرايا الجانبية للسيَّارة. فصحيح أنها تُريك ما يحصل على جانبيك ولكنْ بأحجامٍ وهميةٍ وغير حقيقيةٍ.

المشاعر في المجتمعات القمعية هي مرايا جانبية تكفي فقط لأنْ تُجنِّبَكَ الاصطدام بالآخرين وبالتالي إيذاء نفسك، وليس لأكثر من ذلك.

لقد عشتُ حياتي في سوريا بمشاعر مصابة بعمى الألوان، وحين استطعتُ الإبصار بالألوان الحقيقية هربتُ إلى لبنان، لأنَّ ثمن تلك الألوان لن يكون أقلَّ من السجن أو الموت.

في الطريق
إلى السفارة الأميركية

في صباح اليوم التالي، وقبل الانطلاق من مبنى «المفوَّضية السامية لشؤون اللاجئين» إلى السفارة الأميركية في باص حمل أكثر من 20 شخصاً من طالبي اللجوء، زوَّدتنا إحدى الموظَّفات ببعض التعليمات التي ظننَّاها سخيفةً في البداية لكننا في ما بعد اكتشفنا أنها مهمَّة للغاية، منها مثلاً: الإجابة بأقلِّ قدر ممكن من الكلمات ودون استرسال ودون تقديم معلومات إضافية غير مطلوبة. ومنها أيضاً: عدم إظهار استنكارنا إزاء أسئلة تبدو غير منطقية، بل المبادرة إلى الإجابة عليها بـ«نعم» أو «لا» بشكل واضح ومن دون تذمُّر. فعلى سبيل المثال إذا سُئل أحدنا: هل سبق لك أن انتسبتَ إلى منظمة إرهابية؟ أو: هل سبق لك أن قاتلتَ مع «تنظيم القاعدة» في العراق؟ أو حتى: هل سبق لك أن التقيتَ أسامة بن لادن؟... فعليك أن تُجيب بوضوح من دون اعتبار ذلك شكلاً من أشكال الاتهام لك. والعجيب أنه قد ظهر بيننا فعلاً مَنْ أجاب بـ«نعم» في

السفارة الأميركية عن سؤال: هل سبق لك أن انتسبت إلى منظمة إرهابية؟! وهذا الشخص كان عراقياً تورَّط وتابَ وسلَّمَ نفسه وسُجن ثمَّ أُطلق سراحه وهرب إلى بيروت، وها هو اليوم على أبواب السفارة الأميركية يطلب اللجوء خوفاً على حياته من انتقام الجماعة التي كان أحدَ أفرادها.

***

جلستُ أنا وزوجتي في المقعد الأخير والطويل في الباص كعادتي يوم كنتُ في سوريا، حيث لا يوجد أيُّ شخص ورائي يُضايقني بصوته العالي أو بدخان سيجارته أو بصوت شخيره إذا نام. قلتُ لها مازحاً: «ها نحن الآن في طريقنا للقاء الإمبريالية»... فصحَّحتْ لي: «الشيطان الأكبر لو سمحت». فأنا آتٍ من بلد «البعث» الذي يُسمِّي أميركا بـ«الإمبريالية»، وهي آتية من بلد «حزب الله» الذي يُسمِّي أميركا بـ«الشيطان الأكبر».

لاعب الشطرنج

تمَّ تفتيشنا بشكلٍ دقيقٍ على باب السفارة، ثمَّ جلسنا في صالة صغيرة ننتظر النداء علينا لمقابلة الموظَّف المسؤول.

«تركونا للآخر» همستْ لي زوجتي حين لاحظتْ بأنهم نادوا على الجميع قبلنا. والحقيقة أني لم أجد ذلك غريباً لأنني كنتُ السوريَّ الوحيدَ بين تلك الدفعة من طالبي اللجوء، ولم يكن في بلدي حرب أو اضطراب من أيِّ نوعٍ حتى أتقدَّم بطلب لجوء. بل على العكس تماماً، أنا آتٍ من بلد هادئٍ تتباهى فيه أجهزة مخابراته بأنها تعرف عدد الشَّعرات في رأسِ كلٍّ منَّا.

فكَّرتُ في ما سأقوله عن السبب في إقدامي على طلب اللجوء. ومع أنَّ الأسباب مذكورةٌ في ملفِّي الذي هو بالتأكيد على طاولة الموظَّف الذي سيقوم باستجوابي، إلَّا أني قمتُ بعملية فرز سريعة في رأسي لتلك الأسباب وأنا جالس في انتظار دوري: اعتقالي أكثر من مرَّة في لبنان والتهديد الدائم بتسليمي للسلطات السورية، عدم امتلاكي جواز سفر، اغتيال صحافيين أصدقاء لي بسبب مواقفهم

المناهضة للنظام السوري، شعوري الدائم بالخطر جرَّاء التهديدات المستمرَّة التي كانت تصلني، اكتشاف أنَّ ثمَّة من يراقب تحرُّكاتي... إضافة إلى سببٍ خجلتُ من أن أُخبر «المفوَّضية» به، وهو أنِّي وزوجتي بدون هذا اللجوء لن يكون في وسعنا إنجاب أولاد. فأنا مُطارَد وأعيش بشكل غير شرعيّ في لبنان، وزوجتي اللبنانية لا يمنحها قانونُ بلدِها الحقَّ بمنح جنسيتها لأولادها لأنها أنثى.

لقد كنَّا، كزوجَين، أمام مفارقةٍ عجيبةٍ: أولادنا -في حال قرَّرنا الإنجاب- سيعيشون بلا أيِّ جنسيةٍ وبلا أيِّ بطاقةٍ شخصيةٍ، ولن يستطيعوا دخول المدارس ليتعلَّموا، بل لن يستطيعوا دخول المستشفى إذا مرضوا!

إنَّ الدِّكتاتور لم يحرمني من وطني وجنسيَّتي فحسب، بل حرم منهما أولادي أيضاً.

***

نادى موظَّف السفارة على زوجتي. وبعد أقلّ من ثلث ساعة كانت مقابلتها قد انتهت.

وقفتُ استعداداً للدخول لأنه لمْ يبقَ أحدٌ سواي لمْ يُستجوَب. وبالفعل نُوديَ عليَّ فوراً، حتَّى قبل أن أستطيع سؤال زوجتي عن طبيعة الأسئلة التي وُجِّهتْ إليها.

دخلتُ الغرفة، كانت صغيرة جداً بالكاد اتَّسعت لطاولة صغيرة تحلَّقنا حولها أنا والموظَّف والمترجم. وبدأت الأسئلة.

***

كانت الأسئلة بالطبع تتعلَّق بي وبسيرتي الشخصية والصحافية والسياسية على السواء. وبعد قليلٍ تشكَّل لديَّ انطباعٌ قويٌّ بأنَّ الموظَّف (فهمتُ بأنه قنصل لكني لم أهتمّ بالتأكد من ذلك) لا يريد لي أن أنجح في المقابلة، لأنَّ الولايات المتحدة كانت آنذاك مهتمَّةً فقط باستقدام العراقيين، وغير مهتمَّة باستقبال جنسيات أخرى.

بدت الأسئلة تعجيزيةً أحياناً كثيرة، فمثلاً سألني الموظَّف عن تاريخ وفاة جدَّتي (لأبي) باليوم والشهر والسنة! وأصرَّ على أن أُقدِّم إجابةً! فأجبته عن السنة بشكل صحيح، أمَّا اليوم والشهر -اللذان كان من المستحيل عليَّ تذكُّرهما- فأجبته عنهما عبر لعبة أرقام ركَّبتُها بسرعةٍ في ذهني مهمَّتها الوحيدة تسهيل الحفظ، كي أجيب بشكل صحيح حين يعود ويسألني السؤال ذاته بعد قليل. فمثلاً إذا كان تاريخ العام هو 1987 انتقيتُ تاريخ اليوم الرقم 7، وتاريخ الشهر الرقم 8، أي أنني رحتُ أستعمل أوَّل رقمين من العام. وحين يكون التاريخ في سنوات الألفيَّة الجديدة أستعمل تاريخ اليوم الأوَّل في السنة 1/ 1 أو تاريخ منتصف السنة 1/ 6.

وبذلك كان تذكُّر تواريخ الأيام والشهور سهلاً في حال أعاد موظَّف السفارة السؤالَ عليَّ بغرض إيقاعي في فخِّ الأجوبة المتضاربة.

ساعة كاملة وأسئلة الموظَّف لمْ تنتهِ بعد، وبعضها راح يعيد طرحه عليَّ ليكتشف إذا ما كنت أقول الصدق. وكلُّ ما كان يحصل أكَّد لي بأنَّ الموظَّف ينتظر وقوعي في أحد التناقضات كي يجد حجَّةً لترسيبي في المقابلة... حتى بتُّ وإيَّاه في وضعيةٍ تشبه وضعية لاعبي الشطرنج.

***

كنتُ في قمَّة تركيزي، واستطعتُ تجاوز جميع الأسئلة المفخَّخة، بل إنني وجدتُ الفرصة الذهبية لصنع جواب مفخَّخ وقعَ موظَّف السفارة في شِراكه وأنهى هذه المقابلة الماراثونية الصعبة.

فقد سألني عن تاريخ قدومي أوَّل مرَّة إلى لبنان باليوم والشهر والسنة، فأجبته من خلال لعبة الأرقام السابقة، حيث ذكرتُ تاريخ العام الصحيح (1999)، واخترتُ الرقم الأوَّل لتاريخ اليوم، والرقم الثاني لتاريخ الشهر.

ثمَّ سألني عن سبب مجيئي إلى لبنان أوَّل مرَّة، فأجبته بأنني أتيتُ لطباعة ديواني. فنظر إليَّ باستغرابٍ، ثمَّ طلب من المترجم أن يسألني كيف أكون في تلك السنّ الصغيرة ولديَّ ديوان شعر

مطبوع؟!

قلتُ في نفسي: ها هي الفرصة قد جاءت... وشعرتُ بقلبي يتحوَّل إلى قبضة لاعب منتصر.

***

جُلُّ ما كان يريده موظَّف السفارة هو أن أقع في التناقض أو أن أقول كذبةً مفضوحةً لكي أسقط في المقابلة. وحين قلتُ بأنني جئتُ إلى لبنان سنة 1999 لطباعة ديواني الأول، ظنَّ الموظَّف بأنها الفرصة المناسبة كي يُفهمني بأنه تمَّ رفضي لأنني لم أكن أقول الصدق، فمن غير المعقول، في نظره، أن يكون لديَّ ديوان شعر مطبوع وأنا في تلك السنّ.

كان موظَّف السفارة في تلك اللحظة يُفكِّر بأنها الفرصة المناسبة للإيقاع بي، وكنتُ أنا أيضاً أفكِّر بأنها الفرصة المناسبة للإيقاع به. وكأننا تحوَّلنا بشكل جدِّي إلى لاعبَيْ شطرنج، وأحدنا على وشك أن يقول للآخر: «كش ملك».

هذا الانطباع تشكَّل أيضاً، وبقوَّةٍ، لدى المترجم الذي أخبرني في طريق العودة إلى بيروت بأنَّ أسلوب موظَّف السفارة في استجوابي كان مختلفاً تماماً عن أسلوبه في استجواب البقيَّة، حيث كان معهم شديد المرونة وكانت مقابلاتهم سريعة نسبياً. وقد عزا

المترجم سبب ذلك إلى أنني لستُ عراقياً، أو أنَّ الموظَّف حين قرأ ملفِّي ظنَّ بأنني أبالغ في تقدير خطورة وضعي الأمنيّ، وقد أضفتُ من عندي سبباً ثالثاً هو أنَّ الموظَّف ربَّما شعر بالمتعة في لعبة القط والفأر التي قامت بيننا.

***

كانت خدعتي بسيطةً تقوم على إيهام الموظف بأنني أكذب فعلاً، فأصطنع الارتباك والتردُّد في الإجابة، وحين يتورَّط في اللعبة أعطيه الدليل القاطع على صدقي... وهذا الدليل ليس سوى نسخةٍ مطبوعةٍ من ذلك الديوان وعليها تاريخ النشر: 1999، أحتفظ بها في المنزل.

وانخدع الموظف فعلاً وهو يرى ارتباكي وتردُّدي المصطنع في الإجابة، حتى أيقن أنني أكذب فعلاً، فقال لي: انتهت المقابلة، وغداً قبل الظهر إذا لم تحضر لنا نسخةً من الديوان المنشور سنة 1999 وعليه اسمكَ فاعتبر أنك مرفوض، أما إذا أتيتَ بها فاعتبر أنك قُبِلتَ!

كدتُ أفضح نفسي من شدَّة فرحتي حين قال ذلك. هززتُ رأسي بالموافقة، واتفقتُ مع المترجم على أن أُوصل له نسخةً من الديوان في صباح اليوم التالي.

وبالفعل برَّ موظَّف السفارة بوعده، فبمجرَّد أن وصلته نسخة الديوان في اليوم التالي مع المترجم، وافقَ على منحي ومنح زوجتي اللجوء إلى الولايات المتحدة الأميركية.

وكم كنتُ أتمنَّى أن أرى وجهه حين وصلته نسخة الديوان. بل إنَّ بي رغبةً، حتى اليوم، في أن ألتقيَه ثانيةً وأشرح له حقيقة الخدعة التي قمتُ بها في تلك المقابلة.

الحيرة والحسم

انقلبتْ حياتنا رأساً على عقبٍ، وباتت مسألة سفرنا إلى الولايات المتحدة مسألةَ وقتٍ.

اتصلوا بي من «المفوَّضية» وأبلغوني عن ضرورة حضورنا دورةً خاصَّةً مدَّتها ثلاثة أيام سيقيمونها لجميع المقبولين من أجل تحضيرهم للانتقال إلى مجتمع جديد هو المجتمع الأميركيّ.

لمْ تستطع زوجتي الحضور من الكويت هذه المرَّة، فحضرتُ الدورة وحدي.

كانت الدورة عبارةً عن حصص مكثَّفةٍ من المعلومات العامَّة عن أميركا وعن الولايات التي من المحتمل أن نُسفَّر إليها. وقد لفتني أنَّ الفتاة المكلَّفة إعطاءَنا تلك الحصص كانت لا تتردَّد في إظهار حسدها للمقبولين بعد كلِّ معلومة شيِّقة تذكرها عن أميركا، قائلةً لنا بين الحين والآخر: «نيَّالكن».

حصلتْ مناكفةٌ كلاميةٌ بيني وبين أحد الحاضرين عندما سأل عمَّا سيفعله إذا سُفِّرَ إلى ولاية لا تبيع اللحم الحلال؟ علَّقتُ على

كلامه بأنه ثمَّة ما هو أهمّ من الطعام الآن، فردَّ عليَّ بكلمات غاضبة، قبل أن تتدخَّل الفتاة المحاضِرة وتطلب منَّا التوقُّف عن متابعة السجال.

انتهت الدورة بزيادة مشاعر الحيرة لديَّ. وعلى الرغم من أني وزوجتي قد حسمنا أمرنا بالسفر، إلَّا أنني كنتُ أُناوِرُ نفسي بطرح السؤال الآتي: هل أسافر وأُحرَم من العودة إلى لبنان لخمس سنواتٍ حتى أحصل على جواز سفر أميركي؟ أم أبقى في لبنان مغامراً بسلامتي الشخصية وبفرصة حصولي على جواز سفر يُحرِّرني من هذا السجن غير المرئيّ الذي أعيش فيه؟

وبالطبع، فإنَّ الخوف من محاولةٍ جديدةٍ لتسليمي إلى السلطات السورية، إضافة إلى ما حصل في اجتياح بيروت يوم 7 أيَّار، حَسَما المسألة. ولكني كنتُ أريد أن أشعر في قرارة نفسي بأنني حرٌّ في اتِّخاذ قراري.

اجتياح بيروت

أثناء اجتياحه لبيروت، والذي بدأه في يوم 7 أيَّار 2008، أرسل «حزب الله» بعض عناصره المسلَّحين إلى البناية التي أسكن فيها ليسألوا عنِّي، كما أخبرني الجيران في ما بعد، مثلما أرسلوا العديد من العناصر لترهيب بعض الإعلاميين المناهضين لهم وإذلالهم على الملأ. ولكنَّ هؤلاء فعلوا كما فعلتُ أنا، حيث غادروا أماكن سكناهم إلى أماكن أخرى للاختباء فيها.

كنتُ قد اختبأتُ في تلك الأيام في بيت أحد الأصدقاء في شارع الحمراء. وقد رأيتُ، من الشرفة، مسلَّحي «حزب الله» و«الحزب السوري القومي الاجتماعي» و«حركة أمل» وهم يُخرجون بعض العناصر من مكتب لـ«تيَّار المستقبل»، مقابل البناية التي أختبئُ فيها، ليقوموا بإذلالهم على العلن وبصوت عالٍ. كانوا يطلبون منهم أن يقولوا بأعلى صوتهم بعض العبارات السوقيَّة عن أنفسهم وعن عائلاتهم: «أنا كذا... ابن كذا... أُمِّي كذا... أختي كذا».

للحظةٍ أحسستُ بأنَّ أحدهم كان يشتم نفسه بصوتٍ عالٍ،

ليس لأنَّ هؤلاء قد طلبوا منه ذلك، بل لأنه مقتنعٌ فعلاً بأنه يستحقُّ السباب الذي يُوجِّهه إلى نفسه حين جَبُنَ عن المواجهة ورضيَ بالاستسلام.

***

كانت مجلَّة «الغاوون» الشعرية قد وصلتْ إلى عددها الثالث وحقَّقت نجاحاً لافتاً، في لبنان والعالم العربيّ، عندما تمَّ اجتياح بيروت. وفي العدد الرابع تساءلت الافتتاحيةُ عن سبب عِداء «حزب الله»، الذي يدَّعي «المقاومة»، للشعر والشعراء، على عكس جميع المقاومات في التاريخ والتي أنجبتْ «شعراء مقاومة» من طراز الإسبانيّ لوركا والفرنسيّ بول إيلوار والجنوب إفريقيّ براين برايتنباغ والفلسطينيّ محمود درويش...؟ وحتى المقاومة اللبنانية (اليسارية) التي سبقتْ «حزب الله»، قبل أن يقوم باستئصالها، قدَّمت العديد من الشعراء.

كيف تكون «المقاومة» فعلاً إنسانياً حين تتعرَّض الرموز الكبرى التي تجسِّد الجانب الإنساني إلى التغييب القسريّ؟ كيف نثق بإنسانيةِ حزبٍ لا يثق بالاستعارة الشعرية؟ بل كيف نُعلي من شأن جهةٍ تقوم بالحطِّ من قيمة إنسانيتنا؟

لقد سألنا سؤالاً في افتتاحية المجلَّة جعل «حزب الله» يُوعز

لأقلامه في الصفحات الثقافية بالردِّ علينا من خلال مقالات أيديولوجية في معظمها، وصولاً إلى إقامة مهرجان شعريٍّ مصطنع.

كان ما فعلناه بسيطاً للغاية: لقد استبدلنا خصوم «حزب الله» السياسيين الضعفاء... بخصم جبَّارٍ، هو الشِّعر، استطاع بضربةٍ واحدةٍ تعريةَ هذا الحزب وكَشْفَ حقيقته كميليشيا ضحلةٍ وخاويةٍ إلَّا من قرقعة السلاح.

الاستعداد للسفر

وصلتْ زوجتي من الكويت، وبدأنا ببيع أغراض المنزل وتوزيع ما لم يُبَعْ منها على الجيران.

كانت لحظاتٍ شخصيةً أليمةً ونحن نشاهد تلك الأغراض التي دفعنا ثمنها «من دم قلوبنا» -كما يقول السوريون حين يريدون التعبير عن الثمن الباهظ- وهي تُحمَل خارج المنزل.

للحظةٍ شعرنا بأنَّ حياتنا كلَّها تقاسمها الآخرون على مرأى منَّا.

لم تكن تلك الأغراض جمادات، بل كانت ذكريات. كانت أشبه بتوابيت تحمل تلك الذكريات. وكان المشترون بمثابة المشيِّعين دون أن يعرفوا بذلك.

في الممرِّ

كانت المرَّة الأولى في حياتي التي سأتجاوز فيها مكان انتظار الواصلين في المطار.

استلمنا بطاقات الطائرة، مع دفتر يشبه جواز السفر مكتوب عليه «جواز مرور»، وحين فتحتُه قرأتُ عبارة «لمرَّة واحدة».

كنتُ قلقاً للغاية من أن لا يُسمَح لي بالمغادرة بسبب مشكلتي العالقة مع «الأمن العام»، لأنني عندئذٍ سأكون أمام كارثة أكبر بكثير من كارثة خسارتي فرصة الحصول على جواز سفر. فقد قدَّمتُ استقالتي من وظيفتي وعُيِّنَ شخصٌ آخر مكاني في العمل، كما أنني بعتُ جميع أغراض المنزل، وسلَّمتُ مفاتيحه لأصحابه.

كنتُ أحاول طرد هذه الأفكار من رأسي، محاذراً أن تقرأ زوجتي شيئاً منها في نظراتي القلقة.

***

ومثلما خمَّنتُ، أوقفوني للتأكُّد من سلامة ملفِّي، وسبب ذلك أني كنتُ السوريَّ الوحيدَ بين مجموعة من اللاجئين العراقيين.

طلبَ الضابطُ الاتصالَ بـ«الأمن العام». وعلى الفور افترشتْ زوجتي الأرض متخيِّلةً حجم الكارثة التي تنتظرنا في حال مُنعنا من السفر.

جلستُ القرفصاء إلى جانبها. ومن دون أن أُفكِّر بالتهوين عليها، قلتُ لها بأنَّ هذا الممرَّ الضيِّق الذي عَلِقنا فيه ليس ممرَّاً في المطار، بل هو ممرٌّ في الحياة.

قلتُ لها: لقد عشتُ حياتي كلَّها في الممرّ. عشتُ عالقاً، لا أستطيع العبور ولا أستطيع العودة.

حصول «معجزة»

على الرغم من أنِّي لم أؤمن يوماً بوجود المعجزات، إلَّا أنَّ واحدةً منها حصلتْ معي في ذلك اليوم.

فبينما كنتُ وزوجتي جالسَيْن في الممرِّ ننتظر اتصال المطار بـ«الأمن العام» للتأكُّد من سلامة ملفِّي، سمعنا صراخاً هستيرياً لامرأةٍ تبكي.

وقفنا بحذرٍ لاستطلاع ما يجري، فإذا بامرأة أجنبية شقراء غايةً في الجمال -الأرجح أنها من روسيا أو من دول الاتحاد السوفياتي سابقاً- تبكي وتصرخ مردِّدةً بعض العبارات باللغة الإنكليزية فهمنا منها أنها تتعلَّق بحجز ابنتها، أو شيء من هذا القبيل.

كان جمالها الطاغي، ولباسها المثير الذي جعله صراخُها أكثر إثارةً، كفيلَين بإشغال الضابط المناوب والعساكر والموظَّفين عنَّا. أمسك الضابط -الذي طلب الاتصال بـ«الأمن العام» من أجل التحقُّق من سلامة ملفِّي- بيدها، وصرخ بالعسكريِّ أن يجلب لها كأساً من الماء، ثمَّ أجلسها على كرسي وأخذ يُهدِّئ من روعها

بلطفِ الرجل الشرقي حين يريد الإيقاع بامرأةٍ.

وحين انتبه إلى أننا نراقب ما يجري، أعطى الأمر بتسهيل مرورنا.

قال له العسكريُّ بأنه ما يزال ينتظر ردَّ «الأمن العام»، فأجابه بلامبالاةٍ: «بَلاها... خلص مشِّيهن».

بعض القَدَرية

كنتُ على وشك الاعتقاد بأنَّ القَدَر فعلاً أرسل تلك المرأة لإنقاذي، وبأنها فعلتْ ذلك من أجلي وليس من أجل ابنتها. فلو تأخَّر وصول تلك المرأة بضع دقائق لربما تمَّ منعي من السفر... هذا إذا لم أُسلَّمْ ثانيةً، ضمن لعبةٍ جديدةٍ، إلى «الأمن العام».

***

إنَّ الاعتقاد ببعض القَدَرية مهمٌّ جداً للأشخاص الذين يظنُّون بأنَّ لديهم رسالةً يجب تأديتها، حتى لو كانوا لادينيين. وقد مرَّت في حياتي لحظاتٌ كانت لحظات موتٍ محقَّق لولا هذا التدخُّل الغامض.

في صباح يوم من أيام سنة 2000، نهضتُ باكراً كالعادة كي أجبل الباطون قبل وصول معلِّم البلاط. شدَّة النعاس وتعب يوم الأمس جعلاني أصعد الدرج كمن يمشي في نومه. وصلتُ إلى سطح المبنى حيث يجب أن أجبل الجبْلة. بحثتُ عن المنخل لأُنخِّل به الرملَ فلم أجده. لمحتُه مُسنَداً إلى الحائط الواطئ والرفيع المخصَّص

لإسناد سقف القرميد غير المكتمل على حافَّة سطح المبنى. مَنْ وضعه هناك؟ لم أتذكَّر.

كان المنخل عبارةً عن سريرٍ حديديٍّ ثقيلٍ له شَبَك متوسِّط الثقوب نستعمله في تنخيل الرمل.

تجاوزتُ الجدار ببطء وتثاقل بسبب النعاس، ورفعتُ السرير الحديديَّ على صدري لأرميَه من خلف الجدار، فإذا به يغلبني ويدفعني إلى الخلف!

وبأجزاء من الثانية طارَ النعاس وأنا أقف على حافَّة مبنى من خمسة طوابق، وعلى وشك السقوط بسبب ثقل السرير الذي أخلَّ بتوازني!

كان المكان الذي سأقع عليه عبارةً عن تجمُّع لمئات الأحجار الإسمنتية (البلوك) وقضبان الحديد التي تُستعمل في أعمال البناء. كان المكان الأكثر قسوة لسقوط إنسان من سطح مبنى.

وفي تلك اللحظة التي أيقنتُ فيها حتميَّة موتي بطريقةٍ بشعةٍ للغاية، وأنا أرى نصفي العلويَّ المدفوع بثقل السرير صار خارج حافَّة السطح، عَلِقَ برغيٌّ طويلٌ موجودٌ في السرير بحافَّة الجدار الواطئ والرفيع مانحاً إيَّاي الفرصة الوحيدة لاستعادة توازني وقوَّتي لدفع جسدي إلى الداخل.

بعد تلك الحادثة صار لديَّ إيمانٌ غير مفهوم، ولكنه قويٌّ، بأنني لن أموت قبل أن أكمل مهمَّتي في الحياة، وبأنَّ قوةً غامضةً ستنقذني كلَّما تعرَّضتُ للخطر، سواء أكانت هذه القوَّة برغياً طويلاً في سريرٍ حديديٍّ، أو صراخَ امرأةٍ مثيرةٍ في مطار بيروت.

إقلاع الطائرة

بعدما جلسنا في مقاعدنا، وربطنا أحزمةَ الأمان، وصفتْ لي زوجتي الأصوات التي سأسمعها عند إقلاع الطائرة: دبيب هائل ثمَّ صوت أشبه بصوت باص «الهوب هوب».

كنتُ قلقاً من فكرة دخول شرطيٍّ إلى الطائرة والمناداة باسمي. قلتُ لزوجتي بأنني لن أطمئنَّ حتى أسمع الدبيب الهائل لإقلاع الطائرة وصوت باص «الهوب هوب».

فأكَّدتْ لي بأنهم أقفلوا باب الطائرة ولن يُفتَح قبل الهبوط.

وبالفعل بدأت الطائرة بالتحرُّك، وبدأ الدبيب... وبدأ الألم المؤجَّل.

ومع إقلاع الطائرة تناثرَ حنيني إلى الأماكن وذكرياتي الضائعة والشعور بقسوة عدم العودة قبل سنوات... وكأنما كلُّ تلك المشاعر كانت محمولةً في كيسٍ تمزَّقَ بسبب سرعة إقلاع الطائرة.

انهرتُ في البكاء، فأمسكتْ زوجتي بيدي وهي تقول لي: الآن ستذوق طعم الحرِّية.

لكنَّ الطعم الوحيد الذي تذوَّقته في تلك اللحظات كان شبيهاً بطعم المرارة الذي لا يمكن نسيانه في السردين الذي اشتريتُه بالمال الضائع للفتاة المسكينة.

الحكم ببراءة الشعب

حين مات حافظ الأسد أقفلَ أهل حارتي الأبواب على أنفسهم، شعروا بالخوف وكأنهم متَّهمون.

وعند إعلان رفع الحداد بعد انتخاب بشار الأسد رئيساً، لم يجرؤ كثيرون على نزْع الشارات السوداء عن مداخل بيوتهم، أو رفْع صوت الراديو كما في السابق. لكنهم مع ذلك شعروا بالامتنان. كان شعوراً حقيقياً... يشبه الشعور بالبراءة.

(2011 - 2007)

المحتويات

الإهداء 05

10 حزيران 2000 07

«المفوَّضية السامية لشؤون اللاجئين» 10

الجلسة الثالثة 18

محاولة انتحار فاشلة 19

الجلسة الرابعة 22

باسل الأسد؛ «مو غلط» 27

المُصحِّح 40

«الصعود» إلى المانشيت 52

سيَّارةٌ طائرة، وأُخرى عالقة في الوحل 63

التقاط السياسة من كتب الأدب 71

الحبُّ والمخابرات 73

الحقد كبداية للوعي السياسيّ 76

قطار الدكتاتور وسكَّة المجتمع 78

«تمَّ قبولك كلاجئ» 87
نعي حافظ الأسد 98
حافظ الأسد ضاحكاً وسط الخراب 104
هديةٌ مضحكةٌ 110
المكيدة والاعتقال 113
ثمن سيجارة 122
صحافي في جريدة «الثورة»! 126
رجل مخابرات مزيَّف 131
الزمن الكثيف في السجن 134
سردين بطعم لحم إنسان 140
مدينة عاليهْ 150
روح حافظ الأسد 159
عجوز يكسر عصاه في مأتم شابّ 161
يطلبون الأبد لجثَّة! 163
«فلافل الباسل» 164
استفتاء سنة 1998 168
«الأب القائد» 171
سجن المنفى 173

القسوة طقساً جماعياً 176
المشاعر في المجتمعات القمعية 181
في الطريق إلى السفارة الأميركية 184
لاعب الشطرنج 186
الحيرة والحسم 193
اجتياح بيروت 195
الاستعداد للسفر 198
في الممرِّ 199
حصول «معجزة» 201
بعض القَدَرية 203
إقلاع الطائرة 206
الحكم ببراءة الشعب 208

صدر للمؤلِّف

في الشعر:

- الرسَّام (1999)
- ملحق الشعراء السرِّي (2001)
- قصيدة فاطمة (2004)
- العروس (2007)
- تمثال امرأة تتجرَّع السمّ (2008)
- حصاة في كُليتي اليسرى (2013)
- السوريون شجر (2017)
- قبورٌ صغيرة (2021)
- أطفال تأخَّروا عن موعد النوم (2021)

في السرد:

- لحظة وفاة الدكتاتور (2011)

في النقد الأدبي:

- محاكمة الشِّعر (2021)

في الثقافة:

- فضائح الآخرين (2021)
- المثقَّف القديم (2021)
- عند تقاطُعِ الفنِّ والسياسة (2021)

في السياسة:

- حكُّ الصدأ (2017)
- مفاتيح (2021)
- مواكبات فكرية للثورة (2021)
- الجانب الصامت من المأساة (2021)

في الفلسفة:

- حقائق من نوع خاصّ (قيد النشر)

منشورات ماهر شرف الدين

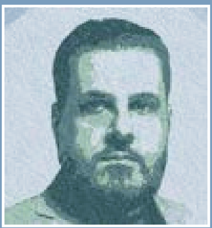
من الكتاب

صمتٌ تامٌّ في الحيِّ الذي نعيش فيه بمدينة الشدَّادي شماليّ سوريا. لا أحد في الطرقات. الجميع خائف وكأنهم هم الذين قتلوا الدكتاتور.

وعلى العكس مما خطَّطتُ له لهذه اللحظة، سرعان ما أُصبتُ بعجزٍ تامّ عن الشماتة أو الفرح، وكأنما دخلتُ في لحظة تأمُّل شخصية. والأسوأ أنه أصابني ما يُشبه الشعور بالذنب!

دخلتُ الحمَّام -لا أعرف سبب غرابة تصرُّفاتنا في لحظات كهذه- تنفَّستُ بعمقٍ وبكيتُ... حمَّام صغير بحجم الغرفة التي أجلس فيها الآن (العام 2007) في «المفوَّضية السامية لشؤون اللاجئين» التابعة لهيئة الأمم المتحدة في شارع فردان ببيروت طالباً اللجوء.

لحظة وفاة الدكتاتور تراودني الآن كي أحكيها للموظَّفة التي بدأت باستجوابي طالبةً مني أن أحكيَ قصَّتي. هل أحكي لها هذه القصَّة، وأضرب بيدي على الطاولة وأقول: «هذه قصَّتي»؟



شاعر وكاتب سوري من مواليد 1977. كتبَ في السيرة والنقد الأدبي والفلسفة والتاريخ والسياسة.

ISBN: 978-0-9985392-8-7